كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلـة العلميـة

بلاغة حوار إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه في سورة مريم

إعداد

د/ مصطفى محمد حجاب حسانين

المدرس في قسم البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط – جامعة الأزهر

(العدد الثامن والثلاثون الجزء الثاني٢٠١٩م)

الملخص باللغة العربية

هذه دراسة تحليلية لحوار إبراهيم-عليه السلام- مع أبيه في سورة مريم تكشف خصائص الحوار البلاغية وما فيه من بدائع الفوائد، في حوار يهتز سامعه، ويبلغ الإقناع به مبلغه. وتأتي في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث تكشف بلاغة الكلمة، ونظم الجملة، وبناء الجمل، والصورة الكلية للحوار.

ومن أهم نتائجها: أن حوار إبراهيم-عليه السلام- طُبع بطابع سورة مريم، واعتمد على أساليب الاستدراج كالتعريض، والتلميح، والتورية... ليمتلك قوة التأثير في المخاطب. وجاءت الأصوات بصفاتها ملائمة للموقف المليء باللين والتلطف من جانب إبراهيم-عليه السلام- كما كانت الأصوات في قول أبيه موحية بغلظته وقسوته. وتجلى اصطفاء إبراهيم المفردة والجملة التي تأسر نفس المخاطب وتستميله، وإن كان اختيار أبيه يسلك مسلكا آخر يخالفه ويضادّه. وظهرت بلاغة التراكيب في النظم من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وتأكيد وعدمه. وتنوعت أساليب الحوار مع امتزاجها في وحدة متكاملة، تجمع الإطناب والإيجاز، والاستفهام والخبر، والأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والتصريح والتعريض. وجاء الحوار على نحو يجمع بين خطاب العقل وخطاب العاطفة؛ ليتحقق الإقناع والإمتاع في مضمارٍ يجري فيه الأدب والبرهان كفرسي رهان. واتضح إحكام بناء الجملة، ودقة ترتيب الجمل ترتيبا حسنا مع اتساقها أحسن اتساق في مبانيها وتناسب معانيها. ومع تصاعد البناء تبين حركة المعنى وتصاعده تصاعدا منطقيا يقبله العقل، وتصاعدا جماليا ترتاح له النفس لتكتمل الصورة التقابلية الكلية التي بني عليها الحوار.

Abstract

Abstract searching of entitled: The eloquence of Ibraham's dialog - peace be upon him - with his father in Surat Mariam.

Preparation: Dr.Mustafa Mohammed Hijab - Teacher at the Faculty of Arabic Language, Assiut , University of Al-Azhar

This is an analytical study of Abraham's dialog with his father, peace be upon him, in Surat Mariam, which reveals the characteristics of the dialog and its virtues, It is an introduction, a catchphrase, and four detectives who reveal the word language, sentence systems, sentence building, and the overall picture of the dialog.

One of the most important results is to rely in dialog on techniques of inclusion such as exposure, hint, and display. The eloquence of compositions appeared in systems of presentation and delay, definition and dissonance, affirmation and non-compliance. Syntax building textured. Order sentences in good order. The methods of dialogue varied: to gather the ingratitude and brevity, the question and the news, the order and the prohibition, the desire and intimidation, the statement and the exposure. Combines the discourse of reason with the discourse of passion and the power of argument and proof.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد،

فإن الحوار له غايات سامية، منها تقريب الأفكار، وإغناء المخاطب أو السامع بالحجج والبراهين وإرشاده إلى الحقيقة، والإجابة عما يجول في ذهنه من تساؤلات، ودفع الخطل في الرأي والفكر بالصحيح الذي لا يأباه العقل، فهو وسيلة للإقناع، وهو المظهر الحسي الكاشف عن الصراع الداخلي أو الفكري أو العقدي.

ومن طبيعة النفس ألا تقف طويلاً مع المعاني المجردة، إذ يعتريها الملل والسآمة والفتور، لكن الحوار يجعل السامع أكثر اهتماما، ويبعث فيه التشوق إلى الردود والأقوال، فيعايش الموقف وهو يستمع إلى أقوال المتحاورين وأساليبهما ويشعر بما وراءها من دلالات خفية وإيحاءات معنوية ونفسية، فالحوار يبعث الحياة والحركة في الأقوال والأحداث، ويحقق ترسيخ المعاني وتقريرها في النفوس بصورة حية، ويصور شخصية أطرافه، ويكشف أحوال النفس وانفعالاتها ومدى الصراع بين أطراف الحوار، وهو أسلوب قرآني له سماته وخصائصه في حكاية معاني أقوال المتحاورين بأسلوب مبين، تمتلك مفرداته وجمله تأثيرا نفسيا قويا، بحيث لو استبدلت لفظة أو جملة بأخرى لضعف التأثير، وبهتت الحجة، وغامت الفكرة.

وبلاغة الحوار تتجلَّى في موضوعات كثيرة في القرآن الكريم، لا سيما القصص القرآني، وحوار الرسل مع أقوامهم، وقد جاء حوار سيدنا إبراهيم–عليه السلام– مع أبيه في سورة مريم وهو نموذج حواري فريد اشتمل على سمات وخصائص يكشفها البحث.

واتبعت في البحث المنهج التحليلي للإبانة عن الدلالات والإيحاءات البلاغية التي وراء مفردات الحوار، ومعرفة خصائص بناء الجملة ونظمها، وطريقة بناء جملِ الحوار، وصورته الكلية... فجاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث على النحو التالي:

المقدمة : تشتمل على أهمية الموضوع وأسباب اختياره ومنهج البحث وخطته.

التمهيد : وفيه:

أولا- مفهوم الحوار.

ثانيا - سمت حوار إبراهيم –عليه السلام– في القرآن الكريم.

ثالثا- علاقة حواره مع أبيه بمقاصد سورة مريم وما فيها من حوار.

- **المبحث الأول** : بلاغة الكلمة في حوار إبراهيم–عليه السلام– مع أبيه في سورة مريم.

- **المبحث الثاني** : بلاغة الجملة في حوار إبراهيم–عليه السلام– مع أبيه.

- **المبحث الثالث** : بلاغة الجمل في حوار إبراهيم–عليه السلام– مع أبيه.

- **المبحث الرابع** : الصورة الكلية في حوار إبراهيم–عليه السلام– مع أبيه.

ثم الخاتمة، ومراجع البحث.

هذا وقد وقفتُ على دراسات متنوعة حول الموضوع، منها:

– الحِوار في قصص إبراهيم –عليه السلام– في القرآن الكريم دروس ودلالات[١]، وهي دراسة دعوية شرعية وليست بلاغية.

---

(١) للدكتور/ محمد بن عبد الرحمن الشايع، بحث في مؤتمر الحوار في الفكر الإسلامي ١٤٢٨هـ ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، الإمارات.

- أدب نبي الله إبراهيم مع أبيه من خلال سورة مريم دراسة موضوعية(١)، وهي دراسة تربوية.

- حوار ابراهيم-عليه السلام- مع الآخر في القرآن الكريم دراسة منهجية(٢)، وركز فيه على المنهج التربوي والسمات والمهارات الشخصية في الحوار .

ومنها دراسة بعنوان: "خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام"(٣)، وهي دراسة بلاغية تحليلية لقصة إبراهيم في جميع مواضعها في القرآن الكريم، وفيها مبحث واحد حول دعوة سيدنا إبراهيم لأبيه في سورة مريم، اشتمل على تحليل بلاغي لنظم الآيات، وقد أفدت منه كثيرا، لكن تختلف دراستي عنه في خطة البحث وتقسيمه ومباحثه، وكان اهتمامه هناك بالقصة، واهتمام الدراسة هنا بالحوار، وقد وقفت عند جوانب لم تقف عندها تلك الدراسة السابقة، كبلاغة الصوت، وبلاغة حروف المعاني، وبناء الجمل، والصورة الكلية للحوار... ولهذا يممت وجهي نحو هذا الموضوع؛ ليتجلى سمت حواره وما في مفرداته وأساليبه وجمله من بدائع الفوائد وروائع الفرائد، لتفترَّ كلماته وجمله عن الأنموذج البديع الذي يحتذى في حوار يهتز سامعه، ويبلغ الإقناع به مبلغه، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

---

(١) للباحث: صلاح بن سالم بن سعيد باعثمان، بحث في مجلة كلية التربية جامعة الأزهر، عدد١٤٧، ٢٠١٢م.

(٢) للدكتور/علي بهلول علي، بحث في مجلة كلية الآداب بجامعة أسيوط، عدد ٤٠، ٢٠١١م.

(٣) للدكتور/ الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط الأولى ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

التمهيد

أولا- مفهوم الحوار :

الحوار لغة: المراجعة في الكلام والمجاوبة، قال الجوهري: "المُحَاوَرَةُ: المُجاوَبَةُ. والتَحاوُرُ:التجاوُب. ويقال: كلَّمتُه فما أحارَ إليَّ جواباً، أي ما ردَّ جوابا"(١). ومادته اللغوية (ح و ر) يقول عنها ابن فارس: "الْحَاءُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: أَحَدُهَا لَوْنٌ، وَالْآخَرُ الرُّجُوعُ، وَالثَّالِثُ أَنْ يَدُورَ الشَّيْءُ دَوْرًا"(٢)، والحوار من الأصل الثاني أي الرجوع؛ ولذا قال ابن منظور: "كلَّمته فَمَا رَجَعَ إِلَيَّ حَوَاراً وحِواراً ومُحاوَرَةً ... أَي جَوَابًا. وأَحارَ عَلَيْهِ جَوَابَهُ: ردَّه. وأَحَرْتُ لَهُ جَوَابًا وَمَا أَحارَ بِكَلِمَةٍ، وَالِاسْمُ مِنَ المُحاوَرَةِ الحَوِيرُ، تَقُولُ: سَمِعْتُ حَوِيرَهما وحِوَارَهما. والمُحاوَرَة: الْمُجَاوَبَةُ. والتَّحاوُرُ: التَّجَاوُبُ ... وَهُمْ يَتَحاوَرُون أَي يَتَرَاجَعُونَ الْكَلَامَ. والمُحاوَرَةُ: مُرَاجَعَةُ الْمَنْطِقِ وَالْكَلَامِ فِي الْمُخَاطَبَةِ"(٣). وقد وردت المادة بهذا المعنى في القرآن الكريم:(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ...)[الكهف:٣٧]، (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا)[المجادلة:١].

---

(١) تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري (ت ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط دار العلم للملايين، بيروت، ط الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، مادة (ح و ر) ٢/ ٦٤٠ .

(٢) مقاييس اللغة: أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط دار الفكر١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ٢/ ١١٥.

(٣) ينظر: لسان العرب: ابن منظور (ت ٧١١هـ)، ط دار صادر – بيروت، الثالثة ١٤١٤هـ مادة (ح و ر) ٤/ ٢١٨ ، تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، ط دار الهداية ، ١١/ ١٠٨.

ومن هذه الدلالة اللغوية يمكن تعريف الحوار بأنه: مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر حول موضوع محدد، أو هو تبادل الحديث بينهما عن طريق السؤال والجواب والقول والرد، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب(١).

قال الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) [المجادلة:١]: "التَّحَاوُرُ حُصُولُ الْجَوَابِ مِنْ جَانِبَيْنِ، فَاقْتَضَتْ مُرَاجَعَةً بَيْنَ شَخْصَيْنِ"(٢)، وهذا المفهوم أقرب إلى الدلالة اللغوية -المراجعة والمجاوبة- التي ذكرتها آنفا.

ويمكن التمييز بين الحوار وما يقاربه في معناه من ألفاظ كالمناظرة، والجدال، والحجاج... فالمحاورة: المراجعة في الكلام والمجاوبة، وأما المناظرة فهي تردد الكلام بين نظيرين، أو مأخوذة من النظر في الكلام. وأما الجدل فهو: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، ويُراد منه إلزام الخصم ومغالبته، ففيه معنى القوة والصراع، كأن المتجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه(٣). ولهذا قال

---

(١) ينظر: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة: د/يحيى زمزمي، ط دار التربية والتراث، مكة المكرمة، ط الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص٢٢.

(٢) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ) ط الدار التونسية للنشر، تونس١٩٨٤م ، ٢٨/ ٩ .

(٣) ينظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم: د/ زاهر الألمعي، مطابع الفرزدق بالرياض، ط الثالثة ١٤٠٤هـ ، ص٢٤-٣٠، وتطلق المناظرة في اصطلاح أهل العلم على النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب. ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي التهانوي، تحقيق: د/علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط الأولى١٩٩٦م، ٢/ ١٦٥٢، وللمزيد حول المناظرة والجدل ينظر: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: عبد الرحمن حسن حبنكة، ط دار القلم، دمشق، الرابعة، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، ص٣٥٩ وما بعدها.

الكفوي: "الجدال: دفع الْمَرْءِ خَصمَه عَن فَسَاد قَوْله بِحجَّة أَو شُبْهَة، وَهُوَ لَا يكون إِلَّا بمنازعة غَيره"[1].والفرق بين الجدال والحجاج أن الحجاج ظهور الحجة التي تؤثر بإقناع المخاطب أو إسكاته وإلزامه، فالملمح الواضح فيه التقارُع بالحجة. والجدال له ثلاثة ملامح: الشِّدّة، والاستمرار في مراجعة الكلام، والقصد إلى مغالبة الخصم[2].

وبهذا يتبين أن الحوار أعمّ من جهة أنه يشمل المجاوبة والمراجعة في موضوع الحوار سواء كانت ناشئة من خلاف أو خصومة بين المتحاورين أم لا ، والغالب فيه الهدوء والبعد عن التعصب، ولهذا اخترت لفظ (الحوار) في عنوان البحث.

ثانيا- سمت حوار إبراهيم -عليه السلام- في القرآن الكريم :

تعددت أساليب حواره عليه السلام، وتنوعت طرائقه لتنوع مستويات المخاطبين، وتنوع المقاصد، فمنه الخطاب الإلهي، ومنه حواره مع أبيه، وحواره مع ابنه، وحواره مع قومه، وحواره مع الضيف (المَلَائكة)، وحواره مع الملِك (النمرود)... ويتسم حوار سيدنا إبراهيم بسمات يمكن إجمالها فيما يلي:

– قوة الحجة والبرهان والاستدلال في حواره، يقيم الحجة على مخاطبه بأدلة متغلغلة في الإقناع، بحيث يترقى من دليل ساطع إلى برهان أنور، ومن حجة بالغة إلى حجة أبلغ، لا مطمع للخصم أن يثير حولها شبهة (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ

(١) الكليات: أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ص٣٥٣.

(٢) ينظر: بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم: د/زينب عبد اللطيف كامل كردي، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣١هـ، ص٣٨.

عَلَى قَوْمِهِ)(الأنعام:٨٣) فهو يدفع بحجته في نحورهم، فيقررها في نفوسهم ويؤكدها، مع الترتيب المنطقي والاتساق في بناء الحوار.

– شيوع بعض الأساليب بصورة ظاهرة: كالتأكيد في حواره المنكرين، وكثرة الاستفهامات بما تحمل من دلالات متنوعة، فلم يخل حوار من استفهام فأكثر، تشرق دلالاته وإيحاءاته في السياق، وقد كثر الاستفهام الحقيقي الذي يثير تفكير المخاطب ليراجع نفسه، ويحاكم عقله حتى يجد بنفسه جوابا أو يرجع عن الخطأ، فيقبل الحق باقتناع، وبرز الاستفهام الإنكاري والتعجبي... مع إصابة جملة الاستفهام موقعها المناسب في الكلام، ومراعاة أثرها في نفس المخاطب.

– الاعتماد على أساليب الاستدراج (بمعناه العام) ومنها: التعريض، والتلميح، ومجاراة الخصم ، والتورية... فهي من مرتكزات الحوار التي تكسب المتكلم قوة التأثير في المخاطب، يقول الزمخشري: "التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم، وفَلّ شوكته بالهوينى"(١).

– تنوع أساليب الحوار بين الإطناب والإيجاز، والاستفهام والخبر، والأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والتصريح والتعريض، والشدة والتلطف...على النحو الذي يقتضيه المقام وغرض المتكلم وحال المخاطب.

– اصطفاء المفردة أو الجملة التي تحقق غرض المحاور وتناسب الموقف النفسي للخصم، مع إحكام بناء الجملة والجمل والصورة الكلية في الحوار على نحو يجمع بين خطاب العقل وخطاب العاطفة فيحقق الإقناع والإمتاع.

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، ط دار الكتاب العربي، بيروت، الثالثة ١٤٠٧هـ، ٣/ ٥٨١، ومعنى (أنضل) أي أشد رميا.

ثالثا- علاقة حوار إبراهيم -عليه السلام- بمقاصد سورة مريم وما فيها من حوار.

أبدأ بذكر الآيات الثمانية التي ورد فيها الحوار(موضع البحث)، قال تعالى:

[illegible] **(مريم: ٤١-٤٨)**

تتجلى علاقة هذا الحوار بمقاصد السورة وما اشتملت عليه من حوار فيما يلي :

أولا- هذا الحوار مطبوع بطابع تلك السورة (رحمة الله وشمولها)، فالجملة الأولى في صدر السورة (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)(مريم:٢) تعلن رحمة الله بزكريا -عليه السلام- في هبته الولد على الكبر، ويتلوها رحمته في شأن مريم وعيسى-عليهما السلام-(وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا)(مريم:٢١)، وفي القصتين جاء لفظ (الرحمة)، كما جاء اسم (الرحمن) في حوار إبراهيم مرتين، ثم تأتي معاني الرحمة وظلالها هنا ممثلة في رحمة الله بإبراهيم التي جعلته يرجو المغفرة والهداية لأبيه: (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)(مريم:٤٧)، وكذلك رحمة الله بإجابة دعائه وتعويضه عن أبيه وقومه بذرية فيها النبوة، فهذه مظاهر رحمة الله في القصص المتوالية في السورة، فطُبع حوار إبراهيم بطابع السورة، وناسب غرضها المؤم الذي لا تخفى جذوره في مطلعها، ولا تغيب فروعه عن معاقدها. ولا شك أن رحمة الله عامة، والخاصة منها لأوليائه، وأخصها لرسله وأنبيائه، فالتعبير عنها في هذه السورة ينهج نهجا متميزا. حيث تسري الرحمة في موضوعات السورة كلها، وتلطف إبراهيم في حوار أبيه مطبوع بطابع السورة .

ثانيا- إذا علمنا أن من مقاصد السورة تنزيه الله عن الشريك والولد، فقد ذكر قبل هذا الحوار قصة من ضل من النصارى بجعلهم عيسى ولد الله فأشركوه في العبادة، ثم جاء هذا الحوار وفيه أنكر إبراهيم على أبيه عبادة غير الله (الأوثان): (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)(مريم:٤٢)، وبهذا يكشف وجه التناسب بينهما على أساس التوافق، أو التكميل، أو الترقي، قال الرازي: "الْمُنْكِرُونَ لِلتَّوْحِيدِ هُمُ الَّذِينَ أَثْبَتُوا مَعْبُودًا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهَؤُلَاءِ فَرِيقَانِ: مِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَ مَعْبُودًا غَيْرَ اللَّهِ حَيًّا عَاقِلًا فَاهِمًا وَهُمُ النَّصَارَى، وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَ مَعْبُودًا غَيْرَ اللَّهِ جَمَادًا لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا عَاقِلٍ وَلَا فَاهِمٍ، وَهُمْ عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ، وَالْفَرِيقَانِ وَإِنِ اشْتَرَكَا فِي الضَّلَالِ إِلَّا أَنَّ ضَلَالَ الْفَرِيقِ الثَّانِي أَعْظَمُ، فَلَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى ضَلَالَ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ،

تَكَلَّمَ فِي ضَلَالِ الْفَرِيقِ الثَّانِي وَهُمْ عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ فَقَالَ: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إبراهيم... الآيات)"[1]. فاتفق الفريقان في الضلال وعبادة غير الله، واكتمل بيان الفريقين الذَين ناقضا التوحيد، وترقى من ذكر الضال إلى ذكر الأضل، وهذا التآزر بين المعاني يخدم مقصد السورة.

ثالثــا- هذا التناسب الذي ذكرْتُ يرجح أن قوله:(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ)(مريم:٤١) عُطف على قوله:(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ)(مريم:١٦)، وهو الظاهر، ورجحه الآلوسي[2]. ويقويه أنه "جَرَى سَرْدُ خَبَرِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أُسْلُوبِ سَرْدِ قِصَّةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ"[3]. فمطلع الحوار هنا يوافق مطلع قصة مريم (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ)(مريم:١٦)، ويوافق المطالع التي ذكر فيها الأنبياء بعده (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى)(مريم:٥١) فالمطالع فيها متماثلة. كما أن فواصل الحوار هنا(نبيا، سويا، عصيا...) توافق فواصل قصة زكريا (زكريا، خفيا، شقيا...)، وفواصل قصة مريم (شرقيا، سويا، تقيا...) في السهولة والسلاسة، واللطف في وقعها الصوتي، حيث بنيت في أكثرها على الياء المشددة المتبوعة بالمد على نحو ما ذكر صاحب الظلال[4] عن رخاوة فواصلها... وهذا يقوي عُلْقَةَ الحوار هنا بالقصتين، ولا تشبه فواصله فاصلتي الآيتين: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ

(١) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط الثالثة، ١٤٢٠هـ، ٢١/ ٥٤١.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) ، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٤١٥ هـ، ٨/ ٤١٣ .

(٣) التحرير والتنوير، ١٦/ ١١١.

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب، ط دار الشروق، بيروت– القاهرة، ط السابعة عشرة ١٤١٢هـ، ٤/٢٣٠٠.

وَهُـمْ فِـي غَفْلَـةٍ وَهُـمْ لَا يُؤْمِنُونَ*إِنَّـا نَحْـنُ نَـرِثُ الْأَرْضَ وَمَـنْ عَلَيْهَـا وَإِلَيْنَـا يُرْجَعُونَ)(مريم:٣٩، ٤٠) لما فيهما من الشدّة والإيقاع القويّ الرصين، حيث تطول الفاصلة وتنتهي بحرف النون (يؤمنون، يرجعون)؛ لأن هاتين الآيتين كالتعقيب على حقيقة عيسى-عليه السلام- وليستا معقدا جديدا فيعطف عليه المعقد الذي فيه حوار إبراهيم -عليه السلام- ولهذا يترجح عُطف(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ) على قوله:(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ)، وإن ذهب أبو السعود إلى أنه عطف على (وَأَنْذِرْهُمْ)، وعليه يكون المراد "أنذرهم ذلك واذكر لهم قصة إبراهيم-عليه السلام- فإنهم ينتمون إليه، فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من القبائح"(١).

رابعًا- إن المتأمل في الحوار الأول من السورة يجد أن (الابن) يحيى بن زكريا -عليهما السلام- جاء وصفه: (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا)(مريم:١٤)، وكذلك في الحوار الثاني من السورة (الابن) عيسى بن مريم -عليهما السلام- وصف نفسه بقوله:(وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)(مريم:٣٢)، فدل المنطوق على البر وعدم التجبر، ثم يأتي الحوار الثالث وفيه (الابن) إبراهيم-عليه السلام- يحاور أباه في صورة بلغت الغاية في البر والتلطف والأدب بعيدا عن التجبر، فتلك دلالة المفهوم ... وبهذا حصل التناسب بين ثلاث حلقات اشتملت عليها السورة. كما ترى التشابه اللفظي الجليّ بين جملٍ أخواتٍ ينادي بعضها بعضا: هنا في حوار إبراهيم (عسى ألا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّى شَقِيّا)(مريم:٤٨)، وهناك في قصة زكريا أول السورة (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود العمادي ت٩٨٢هـ)، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٥/ ٢٦٦.

شَقِيًّا)(مريم:٤) وهذا مما يسمى بالتعطف أو المشاكلة كما ذكر ابن أبي الإصبع[١]، ويقترن هذا التشابه اللفظي بتشابه بينهما في الحالة النفسية، والضراعة الإلهية، والمنح الربانية؛ لأن إبراهيم-عليه السلام-دعا ربه بعد اعتزال قومه وكونه في حالة من الانفرد فلم يكن بدعائه حينئذ شقيا، بل ترتب عليه(وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا)(مريم:٤٩)... فأشبه زكريا-عليه السلام- الذي تضرع حين كان في حالة من الانفراد وعدم الولد، فلم يكن بدعائه حينئذ شقيا، بل أعقبه(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)(مريم:٧) ... وغير ذلك من وجوه التناسب اللفظي والمعنوي مما يبين عن السمات المتحدة أو المتقاربة في بناء السورة، ووسائل التأليف بين مختلف موضوعاتها ومعانيها.

(١) ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ)تحقيق: د/حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص٢٥٤.

المبحث الأول
بلاغة الكلمة في حوار إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه في سورة مريم

الكلمة أو المفردة هي اللبنة الأولى لبناء الجملة والجمل، وكل مفردة من مفردات الحوار هنا إذا نظرت في إيثار مادتها أو بنيتها وصياغتها أو ملاءمتها لأخواتها وإيحاءاتها في سياقها أو حسن موقعها من النظم، تجد لها من الفوائد والدلالات ما يكسب الحوار مزيدا من التأثير في المخاطب، ويكشف عن إحساس المتكلم وعاطفته وانفعاله بحيث يختار اللفظ الذي هو أَخصُّ بدقيق المعنى، وأَكْشَف عنه، وأَحرى بأن يكسبه مزية.

تجد في الحوار الدقة في اختيار المادة المناسبة، وتخصيص كل موضع بالمفردة التي تناسب مادتُها غرضَ المحاور، ويتضح هذا في التعبير عن المجيء والإتيان (جاء، وأتى)، والهجر والاعتزال (واهجرني، وأعتزلكم)، والدعاء والعبادة:

ففي حديث إبراهيم-عليه السلام- عن نفسه عبر بالفعل (جاءني)، وخاطب أباه بالفعل (يأتك)؛ لأن "الإتيان تحيط به معاني الغموض والشك والجهل وعدم القصد، والمجيء تحيط به معاني العلم واليقين وتحقق الوقوع والقصد"[1]، فهذا العلم الذي جاء إبراهيمَ صحيح قطعا؛ لأنه نبوءة ووحي من الله تعالى، وهو مقابل جهل الأب الذي يعبد صنما، ولأن ما جاء إبراهيمَ-عليه السلام- من العلم والنبوة فيه مشقة على نفس المدعوّ من جهة ترك ما ألفته نفسه في العبادة، فناسبه المجيء الذي فيه نوع مشقة، بخلاف ما ورثه أبوه من تقليد للآباء في عبادة

(١) الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: محمد نور الدين المنجد، ط دار الفكر، دمشق، الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص١٤٦.

الأصنام ففيه من السهولة ما يقتضي التعبير بالإتيان، قال الراغب: "والمجيء كالإتيان، لكن المجيء أعمّ، لأنّ الإتيان مجيئ بسهولة"(١).

وجاء في الحوار التعبير بـ (الهجر والاعتزال)، جاء الأول على لسان أبيه (واهجرني)، وجاء الثاني على لسان إبراهيم (وأعتزلكم)، والأول أغلظ وأعنف، لأن مادته(هـ ج ر) تدُلُّ عَلَى قَطِيعَةٍ وَقَطْعٍ(٢)، والاعتزال معناه مجرد التنحي جانبا(٣)، فهو أخف من الهجر، فلا يوحي بقطيعة كما يوحي الهجر، قال ابن عاشور:"الْهَجْرُ: قَطْعُ الْمُكَالَمَةِ وَقَطْعُ الْمُعَاشَرَةِ...وهَذَا الْهِجْرَان فِي مَعْنَى الطَّرْدِ وَالْخَلْعِ إِشْعَارًا بِتَحْقِيرِهِ"(٤). ولا يتصور هنا مقارنة القطيعة للاعتزال؛ لأنه " ضَمَّ إِلَى ذَلِكَ مَا دَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ بَعُدَ عَنْهُ فَإِشْفَاقُهُ بَاقٍ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ وَهُوَ قَوْلُهُ:(سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)"(٥)، فكل مادة منهما تناسب حال صاحبها وأسلوبه وغرضه المقصود في الحوار.

وتنوع التعبير بين (الدعاء) و(العبادة)، فعبر بالعبادة؛ لأن ذلك أوفق بقول أبيه (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي)(مريم:٤٦) مع قوله:(يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ)(مريم:٤٢)، وعبر بالدعاء(وأدعو ربي)؛ لأنه أظهرُ في الإقبال المقابل للاعتزال(٦).

إذا كان هذا في اختيار المادة الملائمة، فإن المتأمل في ألفاظ الحوار يَبين

---

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهانى (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط دار القلم، دمشق، الأولى١٤١٢هـ، ص٢١٢.
(٢) مقاييس اللغة، مادة (هـ ج ر)، ٦/٣٤.
(٣) السابق، مادة (ع ز ل)، ٤/٣٠٧.
(٤) التحرير والتنوير، ١٦/ ١٢٠.
(٥) تفسير الرازي، ٢١/ ٥٤٦.
(٦) ينظر: روح المعاني للآلوسي، ٨/ ٤١٩ .

له أسرارُ اختيار اللفظ الذي يأسر نفس المخاطب ويستميله، وقد كان إبراهيم–عليه السلام– راغبا في إقبال أبيه، طامعا في هدايته، فاصطفى كل مفردة من شأنها أن تحقق إقبالا، واجتنب كل ما ينشئ صدودا وإعراضا، وما أحسن قول الرازي: "إن الْهَادِيَ إِلَى الْحَقِّ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ رَفِيقًا لَطِيفًا يُورِدُ الْكَلَامَ لَا عَلَى سَبِيلِ الْعُنْفِ؛ لِأَنَّ إِيرَادَهُ عَلَى سَبِيلِ الْعُنْفِ يَصِيرُ كَالسَّبَبِ فِي إِعْرَاضِ الْمُسْتَمِعِ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ سَعْيًا فِي الْإِغْوَاءِ"(١).

وواضح في الحوار اصطفاء الكلمة التي تناسب الموقف وحال المخاطب، فتحدث فيه استمالة واستدراجا، ومن ذلك نداء الآخر هنا بوصف الْأُبُوَّةِ (أبت) لا بالعلمية؛ لأنه"عَلِمَ أَنَّ فِي طَبْعِ أَهْلِ الْجَهَالَةِ تَحْقِيرَهُمْ لِلصَّغِيرِ كَيْفَمَا بَلَغَ حَالُهُ فِي الْحِذْقِ وَبِخَاصَّةٍ الْآبَاءُ مَعَ أَبْنَائِهِمْ، فَتَوَجَّهَ إِلَى أَبِيهِ بِخِطَابِهِ بِوَصْفِ الْأُبُوَّةِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّهُ مُخْلِصٌ لَهُ النَّصِيحَةَ"(٢)، فالمقصود استثارة عاطفة الأبوة، رجاء أن يلين قلبه فيستجيب، وهذا من أسمى درجات الإحسان إلى الأب بلطف الخطاب وأدب الحوار وإن كان على غير دينه، يدلل بذلك على حنوه عليه، وشفقته به؛ ليستميله، وليكسر حدَّة الأب على ابنه، فإن معهودهم أنهم يحتقرون رأي الصغير ولا يلتفتون إلى قوله وفكره. وإن كان ناداه باسمه (آزر) في سورة الأنعام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرُ)(٧٤)، بضم (آزرُ) على النداء في قراءة يعقوب(٣)، فالمقام هناك غير المقام هنا كما سيأتي بيانه.

---

(١) تفسير الرازي، ٢١/ ٥٤٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٣، ١١٤ .

(٣) قَرَأَ يَعْقُوبُ " آزَرُ" بِضم الرَّاءِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِنَصْبِهَا. ينظر:النشر في القراءات العشر: شمس الدين ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، ٢/ ٢٥٩.

ولا شك أن اختيار اللفظ للتلطف مع الخصم واستمالته يعد من "الاستدراج" الذي يقول عنه العلوي:"هذا اللقب إنما يطلق على بعض أساليب الكلام، وهو ما يكون موضوعا لتقريب المخاطب والتلطف به والاحتيال عليه بالإذعان إلى المقصود منه، ومساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيقة، كما يحتال على خصمه عند الجدال والمناظرة بأنواع الإلزامات... وكمن يتلطف فى اقتناص الصيد فإنه يعمل فى الحبالة كل حيلة ليكون ذلك سبيلا إلى ما يقصده من الاصطياد، فهكذا ما نحن فيه، إذا أراد تحصيل مقصد من المقاصد فإنه يحتال بإيراد ألطف القول وأحسنه، فما هذا حاله من الكلام يقال له الاستدراج"(١).

والاستدراج ظاهر في أقوال إبراهيم-عليه السلام- تتنوع أشكاله وصوره بحيث تتآزر الألفاظ والجمل والأساليب التي من شأنها استدعاء القبول لدى المخاطب، واستباق النفور والمعارضة بقطع أسبابها ودواعيها من نفس المخاطب لينزِعَ من شِمَاس الصعب الجامح، فيلين لين المنقاد الطّيّع، وكثير من البلاغيين والمفسرين استعمل الاستدراج مرادفا لمصطلحات أخرى أو قريبا منها، كالتعريض، والمذهب

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلويّ (ت ٧٤٥هـ) المكتبة العصرية، بيروت، ط الأولى١٤٢٣هـ، ٢/ ١٤٨، قال حازم القرطاجني:"الاستدرجات تكون باستمالته المخاطب واستلطافه له". منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص٦٤، وقال التنوخي: "الاستدراج أن يقدم المخاطِب ما يعلم أنه يؤثر في نفس المخاطَب من ترغيب وترهيب وإطماع وتزهيد، وأمزجة الناس تختلف في ذلك، فينبغي أن يستمال كل شخص بما يناسبه" الأقصى القريب في علم البيان، مطبعة السعادة، القاهرة، الأولى١٩٨٦م، ص١٠٣ .

الكلامي، والكلام المُنصف، وغيرها... وإن تميز الاستدراج بأمرين: الأول- قصد الإقناع أو إقامة الحجة على المخاطب، والثاني- التلطف والتدرج في القول(١).

ومما يحقق الاستدراج والتلطف هنا العدول عن اللفظ الدال على القطع والجزم إلى اللفظ الدال على الاحتمال والتوقع في قَوْلِهِ: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)(مريم:٤٥)، فقد عبر بالفعل (أَخَافُ) -"والخَوْف توقّع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة"(٢) - ولم يقل: سيمسّك عذاب من الرحمن، على وجه الجزم والقطع، وذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، وأن العذاب لاصق به(٣). وهذا المسلك التعبيري ملائم لنفس المخاطب حيث أَلْقَى إِلَيْهِ حجَّة لائقة بِالْمُتَصَلِّبِينَ فِي الضَّلَالِ، أَي إِنْ كُنْتَ لَا تَجْزِمُ بِذَلِكَ فَافْرِضْ وُقُوعَهُ؛ فَإِنَّ أَصْنَامَكَ لَمْ تَتَوَعَّدْكَ عَلَى أَنْ تُفَارِقَ عِبَادَتَهَا، وفي هذا التعبير مراعاة المخاطب بإِبْقَاء الرجاءِ فِي نَفْسِهِ لِيَنْظُرَ فِي التَّخَلُّصِ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ بِالْإِقْلَاعِ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وفيه أيضا ملمح آخر، وهو مراعاة الأدب مَعَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ لَا يُثْبِتَ أَمْرًا فِيمَا هُوَ مِنْ تَصَرُّفِ اللَّهِ(٤).

فإذا تقرر أن إبراهيم -عليه السلام- يختار اللفظ تلطفا واستمالة كما وضحته، فإن ألفاظ أبيه تسلك مسلكا آخر يخالفه ويضاده، لتكشف عن غرضه وحال نفسه (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ) (مريم:٤٦)، فلم يقل له:(يا بُنيّ) في

---

(١) ينظر: مصطلح "الاستدراج" المفهوم والأثر دراسة بلاغية، تأصيلا، وتطبيقا: د/محمد ابن عبد الرحمن الخراز، بحث في مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق،عدد٣٥، ٢٠١٥م، ص٨٧٣، ٨٧٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ص ٣٠٣.

(٣) الكشاف ٣/ ١٩.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ١١٤/١٦، ١١٨.

مقابل قوله:(يا أبت)، مثلما قال إبراهيم لابنه إسماعيل في آية الصافات: (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ...)(١٠٢). فاستخدم إبراهيم–عليه السلام–الأدب مع أبيه، واستخدم الحنان والعطف مع ابنه في موضعين متباعدين، هنا يقول: (يا أبت) وهناك يقول: (يا بُنيّ)، وهذا من أرقى الآداب، وأحسن الأخلاق، إلا أنّ المكابر المعاند قابل ابنه بهذا الخطاب العنيف الخالي من العاطفة النابع من فظاظة الكفر وغلظة العناد، فلم يقل له: يا بني، وإنما عبر بضميره (أنت)، وناداه باسمه (إبراهيم).

ومثله تعبير أبيه بقوله: (وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) تكشف كلمة (مَلِيًّا)–أي زماناً طويلاً –عن نفسه القاسية التي تميت عاطفة الأبوة وتزهقها، لأن الكفر أخرجها عن فطرتها وأفسدها، بينما يواجهها إبراهيم بهذه الكلمة التي رقّ لفظها وحسن موقعها في النفس:(حفيًّا) "أي مبالغًا في إكرامي مرة بعد مرة وكرَّة إثر كرَّة"[(١)]. فيخفف عن نفسه وطأة العنف والغلظة التي لقيها، ويستبدل بها تسلية عظيمة، وتسرية جليلة يحفّها لطف أعظم، وبرّ أوفر مما فاته حين هجره أبوه[(٢)].

ومن اصطفاء المفردة الحوارية التي تمتلك تأثيرا قويا في نفس المخاطب التعبير بـ(الشّيْطَان) دون (الأصنام) في قوله:(لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)(مريم:٤٤) مع كونه هو الآمر بعبادتها الراضي بها، ففي هذه اللفظة تنفير وتبغيض، قال الطاهر:" وَالْمُرَادُ بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، عَبَّرَ عَنْهَا بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ إِفْصَاحًا عَنْ فَسَادِهَا وَضَلَالِهَا، فَإِنَّ نِسْبَةَ الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ إِلَى الشَّيْطَانِ مُقَرَّرَةٌ فِي نُفُوسِ الْبَشَرِ،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي(ت ٨٨٥هـ)، ط دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٢/ ٢٠٨.

(٢) ينظر: دراسة أسلوبية في سورة مريم: معين رفيق أحمد صالح، رسالة ماجستير في جامعة النجاح الوطنية، فلسطين ٢٠٠٣م، ص٧١.

وَلَكِنِ الَّذِينَ يَتْبَعُونَـهُ لَا يَفْطِنُـونَ إِلَـى حَـالِهِمْ وَيَتَّبِعُونَ وَسَاوِسَـهُ...وَفِي هَذَا تَبْغِيضٌ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، لِأَنَّ فِي قَرَارَةِ نُفُوسِ النَّـاسِ بُغْضَ الشَّيْطَانِ وَالْحَذَرَ مِنْ كَيْدِهِ"(١). ولهذا وضع الاسم الظاهر(الشيطان) موضعِ ضميره في الجملة التالية(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)(مريم:٤٤)، فلم يقل (إنه)؛ لزيادة التقرير والتنفير، وليخرجه مخرج المثل أو الموعظة القائمة بنفسها، وهكذا تجد المفردة الحوارية وسيلة بيانية يستعين بها المحاور على تحقيق غرضه المقصود، ويصل بها إلى أعلى درج التأثير في المخاطب .

وَإذا كان التعبير عَنِ الْأَصْنَامِ بـ (الشيطان) يحقق غرضا بلاغيا كما سبق، فإن التعبير عنها أيضا بـ (ما) الموصولة أو الموصوفة في قوله: (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)(مريم:٤٢) يحقق غرضين مهمين: الأول- الْإِيمَاء إِلَى وَجْهِ بطلان عبادتها، ففيه احتجاج أو استدلال بالتعريف بالموصولية حيث ذكر في جملة الصلة حقيقة الأصنام وصفاتها، فكان المذكور في الصلة لتقرير الغرض بنفي صفات الإلهية عنها، ومثله التعبير بالموصول (وأعتزلكم وما تدعون)،(فلما اعتزلهم وما يعبدون) "لِلْإِيمَاءِ إِلَى وَجْهِ بِنَاءِ الْخَبَرِ، وَعِلَّةِ اعْتِزَالِهِ إِيَّاهُمْ وَأَصْنَامَهُمْ بِأَنَّ تِلْكَ الْأَصْنَامَ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ"(٢). والثاني- أن الموصولية تطبع الحكم بطابع العموم، لتؤسس قاعدة عامة وهي أن كل المعبودات من دون الله عبادتها باطلة منكرة، واعتزالها ومعاداتها لازمة، وهذا أبلغ في الدعوة والحوار من تخصيص أحد المعبودات الباطلة.

وههنا يؤثر في الحوار من أسماء الله تعالى ما يحمل تنبيهات وإشارات تناسب المقام وحال الخصم، فقد ذكر اسم (الرحمن) الدال على صفة الرحمة مرتين:

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٦.
(٢) السابق ، ١٦/ ١٢٢.

الأولى- في قوله:(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)(مريم:٤٤) واختير (الرحمن) من بين أسماء اللَّه تعالى "تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ التي هي من تزيين الشيطان تُوجِبُ غَضَبَ اللَّهِ، فَتُفْضِي إِلَى الْحِرْمَانِ مِنْ رَحْمَتِهِ"(١). وهذا الاختيار ملائم لطابع السورة سورةِ مريمَ التي تكرر فيها اسم (الرحمن) ست عشرة مرة.

الثانية- في قوله:(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ)(مريم:٤٥)، وقد يقال إنَّ التهديد بالعذاب لا يتناسب معه ذكر الاسم الدَّالِ على الرحمة، بل يناسبه من الأسماءِ ما دلَّ على الجلال والجبروت، لكن عند التأمُّل يظهر أنَّ المقامَ مقامُ دعوة وتلطّف، فناسب أن يورد الاسمَ الدالَّ على الرحمة ترغيبًا لأبيه وتلطفًا معه، لطمع إبراهيم أن تنال أباه رحمةُ الرحمن، فأي خطاب ألين وألطف من هذا؟!

ويحتمل أن يكون ذكرُ اسم الرحمن هنا؛ لأن الرحمنَ لا يعذّب إلا من بلغ حدًّا بالغا في العصيان فاستحق العقوبة،" لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ حُلُولَ الْعَذَابِ مِمَّنْ شَأْنُهُ أَنْ يَرْحَمَ إِنَّمَا يَكُونُ لِفَظَاعَةِ جُرْمِهِ إِلَى حَدٍّ أَنْ يحْرِمَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ مَنْ شَأْنُهُ سَعَةُ الرَّحْمَةِ"(٢).

ولا يخفى أن إيثار صياغة على غيرها يحمل دلالات إيحائية في الحوار، فالتعبير القرآني اصطفى لفظ (أبتِ) على لفظ (أبي)؛ لأن في صوت التاء –التي هي عوض عن الياء– همسًا، والهمس يتناسب مع الموقف النفسي؛ كأننا في هذا الموقف نسمع الابن المشفق على أبيه المخالف يتلطف له ويغض صوته لينا ولطفا، فناسبت الأصوات بصفاتها هذا الموقف، وجاءت الصيغة على ما يقتضيه المقام.

(١) التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٧.

(٢) السابق ١٦/ ١١٧.

ومن مراعاة الصياغة إيثار التنكير على التعريف في عدة مواضع في الحوار، ومنه تنكير المسند إليه (عذاب) بالإضافة إلى كونه ملائما لدلالة (المَسّ) في قوله: (أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ)(مريم:٤٥)؛ لأن تنكيره يفيد التقليل، وحمله بعضهم على التفخيم، وعبارة السكاكي:"وأما قوله:(أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ) بالتنكير، فإما للتهويل، وإما بخلافه"(١)، والسياق وما يحيط به من القرائن يرجح أن تنكير المسند إليه هنا يفيد التقليل، والزمخشري(٢) لحظ هذا المسلك الأدق؛ وذلك لأن كلام إبراهيم لم يخل من حسن الأدب مع أبيه، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، وأن العذاب لاصق به، بل إنه قال: أخاف، ولم يقل سيمسك، ثم ذكر المس، وهو أقل تمكنا من الإصابة، ونكَّر العذاب للتقليل، ثم ذكر ربه باسم الرحمن، وهذا أقرب إلى طريقة حوار إبراهيم–عليه السلام– مع أبيه في مواضع أخرى من الكتاب العزيز، فإذا كان إبراهيم–عليه السلام– يخشى أن يمس أباه قدرٌ ضئيل من العذاب فكيف بالكثير؟! وهذا أدق وألطف؛ لمناسبته المقام.

لكن السيد الجرجاني يرى أن كل واحد من الاحتمالين مناسب للمقام من وجه، فيقول: "إن حمل التنكير على التعظيم، كان مبالغة في الوعيد، واستعظاما لما هو مرتكِب له بأنه يقتضي استحقاق عذاب عظيم، فيكون أبلغ في الزجر، وإن حمل

---

(١) مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت ٦٢٦هـ) تحقيق: د/عبد الحميد هنداوي، ط دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، ص٢٩٠.

(٢) ينظر: الكشاف، ٣/ ١٩، وشروح التلخيص، ط دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ١/٣٥٣، وخصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط السابعة، ص٢١٨.

على التقليل، كان إظهارا لمزيد شفقته عليه وخوفه من أن يصيبه أدنى مضرة، فيكون أدخل في قبول النصيحة، فكل واحد منهما يناسب المقام من وجه"[١] .

وكذلك تنكير (صراطا) للدلالة على التعظيم في قوله:(فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا)، وتنكير (شيئا) في سياق النفي للعموم(وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)، أي لا تغني أيَّ شيئ ولو قليلا، فأفادت التقليل أيضا مع العموم.

كما روعي في الحوار اختيار الصيغ والأبنية الدالة على المبالغة ملاءمة للمقام، ومن أبنية المبالغة في الحوار (صِدِّيقًا)، "والمبالغة فيه تحتمل أن تكون باعتبار الكم، وأن تكون باعتبار الكيف، ولك أن تريد الأمرين؛ لكون المقام مقام المدح والمبالغة"[٢]. وَكذلك الوَصْف (عَصِيًّا) مِنْ صِيَغِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْعِصْيَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُفَارِقُ عِصْيَانَ رَبِّهِ وَأَنَّهُ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُ[٣]، وصيغة المبالغة (حَفِيّا) "أي مبالغاً في إكرامي مرة بعد مرة وكرة إثر كرة"[٤]، ومما يفيد المبالغة التشديد في الفعل(اتَّبعني) أي اجتهد في تبعيتي، فهو يكشف حال إبراهيم وشدة رغبته في اتباع أبيه إياه والمبالغة في حرصه عليه.

---

(١) حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ٢٠٠٧م، ص١١٦، ١١٧. وقريب من قول السيد قولُ الشهاب الخفاجي: "والحاصل أن هنا مقامين يمكن اعتبار كل منهما: مقام التخويف، ومقام إظهار مزيد الشفقة وأدب المعاملة، ومقتضى الأول حمل التنكير على التعظيم والمس على مطلق الإصابة، ومقتضى الثاني خلافه". حَاشِية الشِّهَابِ الخفاجي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي المسماة (عِنَاية القَاضِى وكِفَاية الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي): شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) دار صادر، بيروت ، ٦/ ١٦١.

(٢) ينظر: روح المعاني للآلوسي، ٨/ ٤١٤ .

(٣) ينظر:التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٧.

(٤) نظم الدرر، ١٢/ ٢٠٨.

وإذا انتقلت من بلاغة المفردة الحوارية في مادتها وبنيتها وصياغتها إلى بلاغة حروف المعاني في سياق الحوار (حرف الجر، أو حرف العطف، أو حرف النداء...) تجد أنها جاءت على النحو الأليق بالمقام، وأنها تحمل من الدلالات والإشارات ما يتطلبه المقام، ومن ذلك حرف الجر (مِن) الدال على التبعيض في قوله: (مِن العلم)، "فلم يَسِمْ نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك"[(١)]، وهذا مطابق لحال طرفي الحوار (المتكلم والمخاطب)؛ لأن فيه مراعاة لنفس المخطاب (المعاند، الأكبر سنا) فيرفق به العالم ويتواضع معه خشية أن يتوهم منه تكبرا فينفر من دعوته، مع ما فيه من هضم النفس تواضعا.

وكذا الباء الدالة على الإلصاق في قوله: (بِي حَفِيًّا)، تفيد مزيد الرعاية واللطف، ليشمل اللطف به في نفسه، وفيما له به أدنى ملابسة، ويمن له صلة به، قال البقاعي:"(إنه كان بي حفيا) أي في جميع أحوالي"[(٢)]. ولا شك أن توفيق أبيه للإيمان -إن وقع- من أعظم الإحسان إليه واللطف به.

ومما يحتاج إلى تأمل عقلي النظر في حروف العطف، كالفاء التي تربط بين الجمل بدلالتها على السببية أو التفريع أو الترتيب...فتأتي الفاء لبناء النتائج على المقدمات كما في قوله: (جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي)(مريم:٤٣) حيث فرَّعَت الأمر بالاتباع عن الوصف المقتضي لوجوب الاقتداء به، فكانت المزية في

(١) الكشاف ٣/ ١٩.

(٢) نظم الدرر، ١٢/ ٢٠٨، وقال المرادي: "الباء أصل معانيها الإلصاق، ولم يذكر لها سيببويه غيره. قال: إنما هي للإلصاق والاختلاط...قيل: وهو معنى لا يفارقها". الجنى الداني في حروف المعاني: المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تحقيق: د/فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص٣٦.

حسن ترتيبه وإحكام رباطه، وكذلك الفاء في قوله:(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)(مريم:٤٥) هذا الرابط دل على الترقي إلى الأشد، حيث "جعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب"[١]، والعذاب المعنوي النفسي أشد من الحسي.

وجاء حرف النداء الدال على البعد (يا) مَعَ قرب المخاطب وحضوره، "إعلاء لمكانة الأبوة وإجلالا لما يدعوه إليه من الإيمان، وذلك من باب الاستمالة والترفق بالمدعو، قَصْدًا لِإِحْضَارِ سَمْعِهِ وَذِهْنِهِ لِتَلَقِّي مَا سَيُلْقِيهِ إِلَيْهِ"[٢]. وهكذا ترى حروف المعاني قد استنبتت في مواضعها فكانت ذات ظل ممدود من الإيحاءات والتنبيهات.

وأدق من هذا كله أن تتأمل صفات الأصوات هنا فتسمع وراءها انفعالات وأحداثا على نحو ما ذكره ابن جني بقوله:" كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها... حذوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"[٣]، فالأصوات في ألفاظ إبراهيم-عليه السلام- جاءت على سمت المعنى والموقف المليء باللين والتلطف، فترى غلبة الأصوات المهموسة كالتاء، والسين، والكاف، كما يتضح هذا في كثرة تكرار الأصوات المرققة المستفلة (الميم١٥، الباء١٤،السين٧)... مع قلة ورود الأصوات المفخمة المستعلية(الطاء٤، الصاد٣، الغين٢، القاف٢، الخاء١)، وأما كلام أبيه فغلبت عليه الأصوات الشديدة، ففي آية واحدة هي قوله: (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)(مريم:٤٦) تجد الهمزة - وهي صوت شديد

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩.

(٢) التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٣.

(٣) الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني(ت٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الرابعة، ٢/ ١٥٩.

انفجاري- تكررت ست مرات، "ولهذا الصوت دور مهم في تجسيد حدة الغضب والتهديد والاستنكار من أبيه إشعارا بغلظته وشدته"[١]، ووردت الجيم الشديدة المجهورة مرتين في كلمات أبيه المعدودات، عند تهديده ابنه بقوله:(لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي) ولها وقع يوحي بالشدة، بينما لم ترد الجيم في ألفاظ إبراهيم- مع كثرتها- إلا مرة واحدة(جاءني)... فهذه الأصوات بصفاتها التي ذكرتها تنبئك بلين إبراهيم في حواره كما تنبئك بشدة أبيه وغلظته وقسوته.

بعد هذا الذي بينته من الدقة في وضع كل مادة موضعها الأليق، وتخصيص كل موضع بالمفردة التي تناسب مادتُها غرضَ المحاور، واختيار اللفظ الذي يأسر نفس المخاطب ويستميله مع إيثار صياغة على غيرها، وبيان بلاغة حروف المعاني ومجيء الأصوات على سمت المعنى والموقف المليء باللين والتلطف... لا تجد لفظا في حوار إبراهيم -عليه السلام- إلا ويروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ويتغلغل في النفس أثره، ويبلغ في الإقناع مبلغه، ولا يجتمع هذا وأكثر منه إلا فيما تنقطع الأطماع عن مجاراته.

وبلاغة المفردة في الحوار تقود إلى معرفة بلاغة الجملة في بنائها ونظمها وموقعها ...وهذا ما سيتضح في المبحث التالي.

المبحث الثاني

بلاغة الجملة في حوار إبراهيم-عليه السلام- مع أبيه

تؤدي الجملة في الحوار وظيفة إقناعية وإمتاعية حين يجيء نظمها على وجه دون وجه ليكون وفق ترتيب المعاني في النفس، ومن ثم يراعى في النظم

(١) دراسة أسلوبية في سورة مريم، ص٣٩.

التقديم أو التأخير، والذكر أو الحذف، والتأكيد أو التجريد... وكذلك تنوع الجملة بين الخبرية والإنشائية، وتنوع دلالتها تصريحا أو تعريضا، وكونها في صورة حقيقية أو مجازية، مع مراعاة حسن موقعها.

فمن حيث التقديم والتأخير قدّم المسند على المسند إليه في قوله: (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)(مريم:٤٦)؛ لأنه الأهمّ عنده وهو به أعنى، ولهذا وجه الإنكار إلى نفس الرغبة، وفيه ضرب من التعجب ومزيد الإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد[١].

وفي تأخير الضمير (أنت) إشعار بعدم الاهتمام به وإبعاده، ونحوه تأخير اسمه الصريح (يا إبراهيم) إلى ذيل الجملة، ولكن إبراهيم كان يصدر قوله بنداء أبيه، ومعلوم أن "تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى"[٢].

وحين خولف هذا الترتيب، كان "النِّدَاءُ فِي قَوْلِ أبيه (يَا إِبْراهِيمُ) تَكْمِلَةً لِجُمْلَةِ الْإِنْكَارِ وَالتَّعَجُّبِ؛ لِأَنَّ الْمُتَعَجَّبَ مِنْ فِعْلِهِ مَعَ حُضُورِهِ يُقْصَدُ بِنِدَائِهِ تَنْبِيهُهُ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِ، كَأَنَّهُ فِي غَيْبَةٍ عَنْ إِدْرَاكِ فِعْلِهِ، فَالْمُتَكَلِّمُ يُنْزِلُهُ مَنْزِلَةَ الْغَائِبِ فَيُنَادِيهِ لِإِرْجَاعِ رُشْدِهِ إِلَيْهِ، فَيَنْبَغِي الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ (يَا إِبْراهِيمُ)"[٣]، وهذا مما يدل على فطانته

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٠، وينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٩ ، .

(٢) مفتاح العلوم، ص٤١٩.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٩، وقال السجاوندي مبينا جواز الوقف على (آلهتي) أو الوقف على (إبراهيم): "وقد يوصل ويوقف على: (آلهتي)، والوصل أجود؛ لأن لام (لئن) للابتداء على تعرض القسم، أي والله لئن". علل الوقوف: السَّجَاوَنْدِيُّ (ت٥٦٠هـ)، تحقيق د/ محمد العيدي، مكتبة الرشد، ناشرون، الرياض، السعودية، ط الثانية ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م، ٢/ ٦٨٣. وقال الأشموني: "الوقف على (إبراهيم) ويجعل النداء متعلقا بأوّل الكلام، أي: يا إبراهيم أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي". منار الهدى في بيان الوقف والابتدا: أحمد ابن عبد الكريم

وغلظته بعد تلطف ابنه غاية التلطف. ولا يخفى ما في تقديم القيود من وجوه الاهتمام كتقديم (من العلم) على الفاعل (ما) في قوله: (جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)، اهتماما بالباعث على الاستجابة والقبول، وعناية بتقديم ما يقطع الطريق على المنكِر. وتقديم القيد (للرحمن) على عامله (عصيا)، وتقديم القيد (بي) على عامله (حفيا) مما يقتضيه المقام.

كما أن القيود في الحوار تقع موقعا حسنا يكسب الكلام مزية وخصوصية، فالقيد(لأبيه) في مطلع الحوار (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ) للإعلان من أول الأمر عن الطرف الآخر في الحوار، إشعارا بسمت الحوار وملامحه، وأن من دواعي لينه وتلطفه كونه أباه، تلك الرابطة العاطفية التي يتفجر منها ينابيع اللين والتلطف في حواره .

ومن حيث الإسناد تجد إبراهيم-عليه السلام- يسند الخوف إلى نفسه دون أبيه(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ)(مريم:٤٥) كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه[١]، لإظهار الحرص على المخالف، والخوف عليه من التمسك بالباطل، فكاشفه بما في نفسه من إحساس، ليكف أباه عن عبادة باطلة لا يخاف عاقبتها، وإن خاف إبراهيم على أبيه تلك العاقبة، وأي الفريقين أحق بالخوف؟!

ولكنّ أباه على النقيض من هذا حين يسند إلى نفسه فعل الرجم (لَأَرْجُمَنَّكَ)، والإسناد هنا "يَحْتَمِلُ الْحَقِيقَةَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّ الْوَالِدَ يَتَحَكَّمُ فِي عُقُوبَةِ ابْنِهِ، وَيَحْتَمِلُ الْمَجَازَ الْعَقْلِيَّ؛ إِذْ لَعَلَّهُ كَانَ كَبِيرًا فِي دِينِهِمْ فَيَرْجُمُ قَوْمُهُ إِبْرَاهِيمَ اسْتِنَادًا لِحُكْمِهِ بِمُرُوقِهِ عَنْ دِينِهِمْ"[٢]، وهذا الإسناد يشعر بمزيد غلظته وقسوته.

الأشموني (ت ١١٠٠هـ) تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ص٤٨٠.

(١) ينظر: بدائع الفوائد: ابن القيم (ت٧٥١هـ)، ط دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٣/٣.

(٢) التحرير والتنوير، ١٦/ ١٢٠.

وفي بناء الجملة تجد للحذف حسنا لا يكون دونه، "فما مِن اسمٍ أو فعلٍ تَجدُه قد حُذِفَ، ثم أُصيبَ به موضعُه، وحُذِفَ في الحال يَنْبغي أن يُحذَفَ فيها إلاَّ وأنت تَجدُ حذْفَه هناك أَحْسَنَ من ذكرِه، وترى إضمارَهُ في النفس أَوْلى وآنسَ مِنَ النُّطْقِ به"(١).

ففي قوله:(ما لا يسمع ولا يبصر) المقصود توفر العناية على نفي الفعل عن الفاعل على الإطلاقِ، وذلك بنفي السمع والبصر عن الأصنام من غير أن يتعرَّضَ لحديثِ عن المفعولِ، فهو "منسي غير منوي، كقولك: ليس به استماع ولا إبصار، ويجوز أن يقدر (شيئا) مع الفعلين السابقين"(٢)، فيكون حذف المفعول للعموم أي "لا يسمع ولا يبصر شيئا من المسموعات والمُبصَرات"(٣)، وهذا أوغل في الاحتجاج على بطلان ألوهيتها.

ومما يقيم الحجة على أن تَرْك الذِكْر أحيانا يكون أَبلغ من الذكْرِ أنك ههنا في ردِّ إبراهيم-عليه السلام- لا تسمع جملة النداء(يا أبت) التي لازمت أقواله الأربعة السابقة، فلم يقل: يا أبت سلام عليك؛ وإنما المذكور في الحوار:(قال سَلَامٌ عَلَيْكَ)؛ لأنه شعر بعناد أبيه ومكابرته وإعراضه عن الاستجابة، فكأنه ينسلخ منه من الناحية النفسية في إيماءة إلى الإعراض والمفارقة بعد الإقبال، تمهيدا للاعتزال المصرح به في الآية التي تليها (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)، فلا ترى ههنا النمط السابق حيث نداء الأبوة في صدر كل مقالة، وما لجأ إلى هذا النمط

---

(١) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط الثالثة١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، ص١٥٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٠.

(٣) تفسير أبي السعود، ٥/ ٢٦٦ .

الأسلوبي إلا بعد أن تحقق من إصرار أبيه على كفره، ورفضه اتباع ابنه، وهذا من التدرج الأسلوبي الكاشف عن التدرج النفسي الداخلي.

وجاءت الجملة الحوارية مؤكدة في خطاب المنكر، ومنها جملة(إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ)(مريم:٤٣) أكد بـ (إنّ، وقد، واسمية الجملة)؛ لعلمه أن أباه ينكر أن يكون ابنه أعرف منه بشيء، فالمعهود من أهل الجهالة أن يثبت الأب العلم لنفسه، وينفيه عن ابنه لصغره ويحتقره، كأن إبراهيم يقول له: "إِنْ كُنْتُ مِنْ صُلْبِكَ وَتَرَى أَنِّي أَصْغَرُ مِنْكَ، لِأَنِّي وَلَدُكَ، فَاعْلَمْ أَنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ مِنَ الْعِلْمِ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا لَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ وَلَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ وَلَا جَاءَكَ بَعْدُ"[(١)]، ويقويه تقديم القيد (من العلم) اهتماما بالباعث على الاستجابة والقبول، وعناية بتقديم ما يقطع الطريق على المنكِر.

وتارة يأتي التأكيد ليدل على امتلاء نفس المتكلم بمضمون الخبر، ولينقل للمخاطب صدق عاطفة المتكلم، كما في جملة:(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ)(مريم:٤٥) ومثلها جملة (إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)(مريم:٤٧)، وجملة (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)(مريم:٤٤).

وتكثر المؤكدات في قول أبيه مهددا:(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ)(مريم:٤٦) (القسم، واقتران الجواب باللام، ونون التوكيد الثقيلة) لتنقل هذه المؤكدات ما تفيض به نفس المتكلم الغضوب من انفعالات متأججة، ظهرت في قول مترع بالشدة والعنف والغلظة.

ومن بلاغة النظم في الحوار مجيء الكلام على صورة الأمر وجوابه (اتبعني أهدك) دون أن يعبر بأسلوب الشرط (إن تتبعني أهدك) وهو يفيد ما يفيده الشرط

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، ٥/ ٢٣٤.

من الارتباط السببي بين الهداية واتباعه، وفوق ذلك دلالة الطلب (اتبعني) على حرصه وشدة رغبته في اتباع أبيه لدعوته(١).

ومن المحسنات البديعية في جملة(جاءني من العلم ما لم يأتك) الطباق المعنوي بين الفعلين، وفيه تقوية حجة إبراهيم، وهدم شبهة أبيه، بحيث يرسم طباق السلب صورة العالِم في أحد طرفي الحوار وفي الطرف الآخر ضده الذي لا يعلم، وقد تقرر لدى العقول أنهما لا يستويان، فأيهما أحق بالاتباع في حكم العقل؟

وتتنوع دلالة الجملة في الحوار، فمنها جملة تعطيك الدلالة تصريحا، ومنها جملة تعطيك الدلالة تلميحا أو تعريضا أو تورية، وهذه أساليب المحاور وعدته، وبها يحقق ما ذكره الزمخشري في قوله: "التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم، وفَلّ شوكته بالهوينى"(٢).

وبيان ذلك أن جملة:"(كان للرحمن عصيا) من باب التلميح، وهو أن يشار في الكلام إلى نحو قصة، وهي ما ذكره الله في قوله: (وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي)[الكهف:٥٠]"(٣). لأن الشيطان كان لآدم وذريته عدوا، فصار للرحمن عصيا، فالعصيان نتيجة المعاداة، "فاقتصر على ما ذكره من النتيجة؛ لأنها الأهم، ولأنها تنبه على سببها ومقدماتها فتعرف منها"(٤).

---

(١) في التفريق بين دلالة جواب الشرط وجواب الطلب، ينظر: معاني النحو: د/ فاضل السامرائي، ط شركة العاتك بالقاهرة، ط الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ٤/ ١٧.

(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ٥٨١. (أنضل) أي أشد رميا.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب)، ط جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات، ط الأولى١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م ١٠/٣٠، حَاشِية الشِّهَابِ الخفاجي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، ٦/ ١٦١.

(٤) ينظر: حَاشِية الشِّهَابِ الخفاجي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، ٦/ ١٦١.

ويتجلى التعريض[١] في أكثر من موضع في حواره ليحقق بالتعريض ما لا يحققه التصريح، ولله درُّ الغزالي حين يحث على أن يزجر المخطئ بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرّح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم، ويهيج الحرص على الإصرار، ولأن التعريض يميل النفوس الفاضلة والأذهان الزكية إلى استنباط معانيه، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به، ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته[٢].

فالتعريض من أدوات السياسة النفسية الدقيقة في خطاب الخصم وحواره؛ لكيلا ينقطع الحبل بينك وبينه حتى تروضه على سماع الحق والتفكير فيه، ليعترف إذا لزمته الحجة أو يصمت فلا يكابر، فالتعريض- في هذا الجو المليء بأسباب التعصب- تملك به ناصية الخصم وإنه لعنيد، وتقوده بالخزامة وإنه لمصعب، وتفحمه وإنه لألد الخصام! [٣].

من ذلك تعريضه بجهل أبيه وضلاله دون التصريح بهما في الجملتين: (إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)(فَاتَّبِعْنِيَ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّا)[مريم:٤٣] فإنه لم يقل له: إنك جاهل، ولا ضال، بل عدل عن التصريح بهما إلى التعريض بألطف عبارة تدل على المعنى برفق وحسن أدب، "حيث دعاه إلى الهدى صريحا(فاتبعني أهدك)

---

(١) التعريض: "أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره". الكشاف للزمخشري ١/ ٢٨٣. وعرَّفه ابن الأثير بقوله: "هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي" المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٠هـ، ٢/ ١٨٦. وينظر: التعريض في القرآن الكريم: د/إبراهيم الخولي، ط دار البصائر، القاهرة، الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص٢٥- ٣٦.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي(ت ٥٠٥هـ)، ط دار المعرفة- بيروت ١/ ٥٧.

(٣) ينظر: التعريض في القرآن الكريم، ص١٦٧.

ولم يصرح بضلاله؛ لكونه في خطاب الأب، كما أن في التصريح بضلاله تحريك الغضب والمخاصمة بأسوأ الطرق، والإعراض عن قبول الحق، وهذا إرشاد للأمة إلى سلوك هذه الطريقة السنية في الدعوة إلى الحق والسبل العلية"(١).

وهذا بخلاف التصريح بالضلال في سورة الأنعام(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)(الأنعام:٧٤)، فهل أغلظ إبراهيم القول لأبيه عندما أوغل في شركه وعبادته للأصنام، على خلاف خطابه هنا في سورة مريم الذي فيه رفقٌ به وتلطف؟ أو اختلف المخاطب في سورة الأنعام، فهو عمه وليس أباه. إلى القول الأول مال ابن عاشور، فقال: "الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَحْكِيَّ فِي آيَةِ سورة الأنعام مَوْقِفٌ مِنْ مَوَاقِفِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ أَبِيهِ، وَهُوَ مَوْقِفُ غِلْظَةٍ، فَيَتَعَيَّنُ أنّه كَانَ عِنْد مَا أَظْهَرَ أَبُوهُ تَصَلُّبًا فِي الشِّرْكِ. وَهُوَ مَا كَانَ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُ أَبُوهُ: (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ)[مَرْيَم:٤٦]، وَهُوَ غَيْرُ الْمَوْقِفِ الَّذِي خَاطَبَهُ فِيهِ بِقَوْلِهِ: (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ)(مريم:٤٢)"(٢).

ويؤيد القول الآخر -أعني اختلاف المخاطب- أن الخطاب في سورة الأنعام فيه من الشدة والغلظة وندائه باسمه ما يؤكد أن المخاطب هنا ليس هو المخاطب في سورة مريم الذي يتلطف له ويستميله ويترفق به ويناديه بصفة الأبوة تقديرا وإكبارا ، ويدلل الرازي على أن المخاطب في آية سورة الأنعام ليس والده، بل عمّه، فيقول: "الْحُجَّةُ عَلَى أَنَّ آزَرَ مَا كَانَ وَالِدَ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- شَافَهَ آزَرَ بِالْغِلْظَةِ وَالْجَفَاءِ. وَمُشَافَهَةُ الْأَبِ بِالْجَفَاءِ لَا تَجُوز ... وإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ شَافَهَ آزَرَ بِالْغِلْظَةِ وَالْجَفَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِوَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ قُرِئَ "وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرُ" بِضَمِّ " آزَرُ "، وَهَذَا يَكُونُ

---

(١) ينظر: حاشية القونوي ١٢/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) التحرير والتنوير ٧/ ٣١٢.

مَحْمُولًا عَلَى النِّدَاءِ، وَنِدَاءُ الْأَبِ بِالِاسْمِ الْأَصْلِيِّ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْجَفَاءِ. الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ لِآزَرَ: (إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْجَفَاءِ وَالْإِيذَاءِ... فَكَيْفَ يَلِيقُ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلُ هَذِهِ الْخُشُونَةِ مَعَ أَبِيهِ فِي الدَّعْوَةِ؟"[1].

ومن التعريض أيضا جملة: (عسى ألا أَكُونَ بِدُعَاء رَبّى شَقِيّا)، فإنه حين أعلن رجاءه ألا يكون بعبادة ربه شقيا "عرّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم، مع التواضع لله بكلمة (عَسى) وما فيه من هضم النفس"[2] وبهذا ينبههم من طرف خفي إلى خيبة مسعاهم، مع ما فيه من كناية عن سعادته؛ لأنه باعتزال قومه (وأعتزلكم) وكونه في حالة من الانفرد في عبادة ربه(وأدعو ربي) كل ذلك لم يترك في نفسه وحشة ولا شقاء، بل هي سعادته لأن الله يجيب دعاءه، وأما آلهتهم فهي مصدر شقائهم، لا تسمع لهم دعاء في الدنيا، ولا تقدم لهم نفعا في الآخرة.

ومن التورية قوله:(لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) (مريم:٤٢) فالاستفهام يمكن فهمه على الحقيقة بالسؤال عن علة العبادة، ويمكن حمله على الكناية عن تعجيز المخاطب، والمعنى الأول ظاهر قريبٌ يسبق الذهن إليه ويَتَوهّمهُ قبل التأمّل، والمعنى الآخر فيه نوع خفاءٍ يدركه المتلقي بَعْدَ التأمّل، فورَّى عن المعنى الآخر بالأول القريب، ومن هنا نتجت التورية، فقد "أَلْقَى إِلَيْهِ حُجَّةَ فَسَادِ عِبَادَته فِي صُورَةِ الِاسْتِفْهَام عَنْ سَبَبِ عِبَادَتِهِ وَعَمَلِهِ الْمُخْطِئ، مُنَبِّهًا على خطئه عِنْد مَا يَتَأَمَّلُ فِي عَمَلِهِ، فَإِنَّهُ إِنْ سَمِعَ ذَلِكَ وَحَاوَلَ بَيَانَ سَبَبِ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِ، لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مَقَالًا، فَفَطِنَ بِخَطَلِ رَأْيِهِ وَسَفَاهَةِ حِلْمِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ عَبَدَ حَيًّا مُمَيِّزًا لَكَانَتْ لَهُ شُبْهَةٌ مَا...فَالِاسْتِفْهَامَ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقِيقَتِهِ، وَمُكَنًّى بِهِ عَنْ نَفْيِ

(١) ينظر تفسير الرازي، ١٣/ ٣٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢، وينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ١٢٣

الْعِلَّةِ الْمَسْئُولِ عَنْهَا، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّعْجِيزِ عَنْ إِبْدَاءِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ، فَهُوَ مِنَ التَّوْرِيَةِ فِي مَعْنَيَيْنِ يَحْتَمِلُهُمَا الِاسْتِفْهَامُ"[(١)]. وفي الاحتجاج عليه بالاستفهام–الذي جمع الدعوى مع الدليل– إيجاز لطيف، مع تنبيه الخصم إلى التأمل وحمله على مراجعة نفسه والشك في فكره ليصل إلى ما وراء الظاهر بأسلوب بديع.

ولترفقه وتلطفه لم يصرح بكون مصير أبيه الاقتران بالشيطان في اللعن والعذاب الخالد، بل عدل إلى الكناية (فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)(مريم:٤٥)،" فكنّى بِالْوِلَايَةِ عَنِ الْمُقَارَنَةِ فِي الْمَصِيرِ، وَالْوَلِيُّ: الصَّاحِبُ وَالتَّابِعُ وَمَنْ حَالُهُمَا حَالٌ وَاحِدَةٌ وَأَمْرُهُمَا جَمِيعٌ "[(٢)].

وترى الإمتاع يمازج الإقناع في الحوار في تلك الصورة البيانية (أَهْدِكَ صِراطًا سَوِيًّا) وهي "اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ، شُبِّهَ إِبْرَاهِيمُ بِهَادِي الطَّرِيقِ الْبَصِيرِ بِالثَّنَايَا، وَإِثْبَاتُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ قَرِينَةُ التَّشْبِيهِ"[(٣)]. والاستعارة هنا – مع ما فيها من التخيل– تقوي حجة إبراهيم، وتحقق درجة أعلى في الإقناع؛ لأن "الاسم المستعار كلما كان قَدمُه أثبتَ في مكانه، وكان موضعه من الكلام أضَنَّ به، وأَشَدَّ محاماةً عليه، وأمنع لك من أن تتركه وترجعَ إلى الظاهر وتصرِّح بالتشبيه، فأمرُ التخييل فيه أقوى، ودعوى المتكلم له أظهر وأتَمُّ"[(٤)]. كأنه يقول لأبيه: "هب أنى وإياك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه"[(٥)]. وبرهان ذلك أنور، والحجة

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٣، ١١٤ .

(٢) التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٧.

(٣) السابق، ١٦/ ١١٦.

(٤) أسرار البلاغة، ص٣١٨.

(٥) الكشاف، ٣/ ١٩.

العقلية فيه أظهر، فإن من المسلَّمات أن الجاهل بالطريق يتبع العالم به لئلا يتيه، فكذلك ينبغي أن يكون من لا يعلم متبعا لمن جاءه العلم من الله وحيا.

وترى الجملة في الحوار يلطف لديك موقعها، فالجملة التي تنبئك هنا بصفات المُحاور وأدبه، وتعجل إليك لتنبهك إلى سمت حواره على جهة الإجمال قبل سرده وعرضه تفصيلا هي جملة(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)[مريم:٤١]، فهي تشوق السامع إلى ما يتلوها من التفصيل، فإذا جاز تعلق الظرف (إذ) في قوله:(إذ قال لأبيه) بـ (كان صديقا نبيا)[1]، فالمعنى حينئذ أنه كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات، فسيدنا إبراهيم –عليه السلام– ينهج في حواره مع أبيه نهجا رسمت الصديقية والنبوة معالمه، كما تسري إيحاءات (النبوة والصديقية) في أغصان الحوار وفروعه من مستهل الحوار إلى ختامه سريان الماء في العود الأخضر، ولهذا وقعت في مستهل الحوار موقعا بارعا، فكانت المنار، ثم أضاءت طريق الهدى بالأنوار وسط الحوار (قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتبعني)(مريم:٤٣) فهذا وحي النبوة الصادق، حتى تجلى أثرها في حسن ختام الحوار: (إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا *وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)(مريم:٤٧، ٤٨)؛ لأن من جُمع له بين الصديقية والنبوة فهو أهل لأن يكون الله به حفيا، وأجدر ألا يكون شقيا.

(١) هذا أحد الأوجه الجائزة في إعرابها مع جواز أوجه أخرى. ينظر: التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، ط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، ٢/ ٨٧٥، البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٧/ ٢٦٨.

ثم إن النفي في جملة الصلة (لم يأتك) ينسف منازعة أبيه وادعاءه العلم إذ كان كبير قومه ديانة، ليبقى علم الوحي والنبوة الذي اختص به إبراهيم دون أبيه، فحسن موقعه هنا في التمهيد للأمر بالاتباع (فاتبعني).

وكذلك حسُن موقع جملة:(سَلَامٌ عَلَيْكَ)(مريم:٤٧) بعد التهديد والغلظة؛ لأنها جاءت بمنزلة جواب الحكيم إظهارًا للتعطف والرأفة، وإبداءً للرقة والرحمة، كأنه –عليه السلام– ما التفت إلى جفائه وغلظته[(١)]. ذلك أن ما يترقب بعد غلظة الأب وقسوته أن يكون رد الابن مثله غلظة أو يزيد، إن خضع لما تمليه طبيعة النفس البشرية، لكن المفارقة تجلت في الإعراض عن جهله ولغوه، والتغاضي عن غلظته تأدبا ولطفا في الرد، فلم يقابل أباه بما يكره...وهكذا تبين بلاغة الجملة الحوارية في نظمها وبنائها وحسن موقعها، ويزداد الأمر وضوحا عند النظر في بلاغة الجمل في المبحث التالي.

---

(١) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ٣٨/١٠.

المبحث الثالث

بلاغة الجمل في حوار إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه

تتنوع صور الحوار القرآني من حيث الإيجاز والإطناب تبعا لاختلاف مقتضى الحال، فتجد المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر...فترى مساحة متسعة لأقوال إبراهيم المتوالية؛ لأنها الحجج والبراهين، وصوت الحق، وليتشوق السامع إلى معرفة جواب الطرف الآخر في الحوار وموقفه بعد أن تقرر – من حجج إبراهيم– في العقول ما لا يقبل سواه، وتمكنت أقواله في النفوس تمكنا لا مكان معه لمنازع ولا لمعارض، وأما الطرف الآخر في الحوار فلم يكن منه إلا التهديد والقطيعة، فليس ثمة أقوال يقارع بها حجج إبراهيم الواضحة، ولا ردود هي جديرة بالنظر فيها.

ومع امتداد أقوال إبراهيم–عليه السلام– واتساع المساحة التي تحوزها إلا أن طابع الإيجاز واضح عليها، لما حوت من فيض المعاني والإيحاءات والإشارات؛ لأن "القرآن الكريم يستثمر أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، وتلك ظاهرة بارزة فيه كله يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب"(١). ثم لا تجد لفظا مذكورا إلا وقد حقق فائدة في الحوار لا تتحقق عند حذفه، ولا يسد غيره من الألفاظ المذكورة مسده، ولا يضاء الحوار إلا بطلوع شمسه، ولا تجد معنى طواه الحوار إلا جعل في الذكر ما هو كالإشارة إليه .

فمن الإيجاز قوله:(لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)(مريم:٤٤)؛"لِأَنَّ مَعْنَاهُ: لَا تَعْبُدِ الْأَصْنَامَ؛ لِأَنَّ اتِّخَاذَهَا مِنْ تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ لِلَّذِينَ اتَّخَذُوهَا وَوَضَعُوهَا لِلنَّاسِ، وَعِبَادَتَهَا مِنْ

(١) النبأ العظيم(نظرات جديدة في القرآن):د/محمد عبدالله دراز، ط دار القلم، الكويت، ص١٢٧.

وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ لِلَّذِينِ سَنُّوا سُنَنَ عِبَادَتِهَا، وَمِنْ وَسَاوِسِهِ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَطَاعُوهُمْ فِي عِبَادَتِهَا، فَمَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ، فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ، وَكَفَى بِذَلِكَ ضَلَالًا مَعْلُومًا"(١). فجمع باللفظ الوجيز كل هذه المعاني المتسعة، فكانت الكلمة الواحدة تطويقا للخصم، وأخرجت الدعوى مع الدليل في لفظ واحد، كما أخرج الاستفهام مورّى به عن التعجيز عن الجواب ومقرونا بالدليل في جملة وجيزة: (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)(مريم:٤٢)، ولا يخفى الإيجاز في أسلوب التلميح (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)(مريم:٤٤)، حيث اقتصر في الذكر على النتيجة وهي عصيان الشيطان؛ لأنها الأهم، ولكونها تنبه إلى سببها ومقدماتها وهي معادته آدم وذريته، وإن لم يصرح بها.

وفي قوله:(وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا*فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ) إيجاز بحذف الجملة والتقدير: فاعتزلهم، فلما اعتزلهم...لكن طوتها الآيات إسراعا إلى الجزاء المترتب عليها، إذ هو الأهم.

ومن الإطناب هنا التكرار البليغ، حيث كرر إبراهيم نداء أبيه (يَا أَبَتِ) فِي مقدمة كل كلام لشدة الرغبة فِي إرشادِه، واستعطافه، فتكررت أربع مرات، وهو "تَكْرِيرٌ اقْتَضَاهُ مَقَامُ اسْتِنْزَالِهِ إِلَى قَبُولِ الْمَوْعِظَةِ؛ لِأَنَّهَا مَقَامُ إِطْنَابٍ. وَنُظِّرَ ذَلِكَ بِتَكْرِيرِ لُقْمَانَ قَوْلَهُ: (يَا بُنَيَّ)[لُقْمَان:١٣-١٦] ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِخِلَافِ قَوْلِ نُوحٍ لِابْنِهِ: (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا)[هود:٤٢] مَرَّةً وَاحِدَةً دُونَ تَكْرِيرٍ؛ لِأَنَّ ضِيقَ الْمَقَامِ يَقْتَضِي الْإِيجَازَ، وَهَذَا مِنْ طُرُقِ الْإِعْجَازِ"(٢).

وتظهر بلاغة الفصل والوصل بين الجمل، ومن ذلك فصل أقوال المتحاورين، حيث تأتي (قالَ) "غير مسبوقة بِالْفَاءِ أَوِ الْوَاوِ جَرْيًا بِهِ عَلَى طَرِيقَةٍ مُتَّبَعَةٍ فِي الْقُرْآنِ

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٦.

(٢) السابق ، ١٦/ ١١٣، ١١٤ .

فِي حِكَايَةِ الْمُحَاوَرَاتِ وَهِيَ طَرِيقَةٌ عَرَبِيَّةٌ، وَإِنَّمَا حَذَفُوا الْعَاطِفَ فِي أَمْثَالِهِ كَرَاهِيَةَ تَكْرِيرِ الْعَاطِفِ بِتَكْرِيرِ أَفْعَالِ الْقَوْلِ؛ فَإِنَّ الْمُحَاوَرَةَ تَقْتَضِي الْإِعَادَةَ فِي الْغَالِبِ، فَطَرَدُوا الْبَابَ، فَحَذَفُوا الْعَاطِفَ فِي الْجَمِيعِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي التَّنْزِيلِ[١]. وقد نبه الإمام عبدالقاهر إلى أنَّ الذى تراهُ في التنزيلِ من لفظِ "قال" مَفصولاً غيرَ معطوف في الحوار جاء على ما يقعُ في أنفسِ المخلوقين منَ السُّؤال. فلما كان في العُرفِ والعادةِ فيما بينَ المخلوقينَ إذا قيل لهم: "دخلَ قوم على فلان فقالوا كذا"، يقتضي أن يُتْبعَ هذا الفعلُ بقولٍ: فكأنه قِيل: "فما قال؟ "، فيأتى قولُه: قَالَ كذا... جواباً عن ذلك، فأخرجَ الكلامَ ذلك المُخْرجَ، لأنَ الناسَ خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المَسْلكُ الذي يَسْلُكُونه[٢].

والوصل في الظاهر بين الجمتلتين المختلفتين خبرا وإنشاء (لأرجمنك وَاهْجُرْنِي) محمول على العطف على محذوف، والتقدير: فاحذرني واهجرني، ولعل الداعي لذلك وعدم اعتبار العطف على (لأرجمنك) أنه لا يصح أو لا يحسن التخالف بين المتعاطفتين إنشائية وإخبارية،... ومن أجاز العطف عليه بناء على تجويز سيبويه العطف مع التخالف في الإخبار والإنشاء، والتقدير أوقع في النفس[٣].

ومن إحكام الربط بين جمل الحوار الجملة التعليلية المصدرة بـ (إنَّ) المؤكدة التي "من شأنِها إذا جاءتْ على هذا الوجهِ، أَن تُغْني غَناء "الفاءِ" العاطِفةِ، وأنْ تُفيدَ من رَبْط الجملةِ بما قبلَها أمراً عجيباً. فأنتَ ترى الكلامَ بها مستأنفًا غير مستأنف، ومقطوعًا موصولًا معًا"[٤]. وهذا بيِّنٌ في شبه كمال الاتصال (الاستئناف

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ١/ ٤٠١.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، ص٢٤٠.

(٣) روح المعاني: الألوسي، ٨/ ٤١٦ .

(٤) دلائل الإعجاز، ص٢٧٣.

البياني) حين تكون الجملة الثانية بمنزلة الجواب عن سؤال تثيره الجملة الأولى، ومنه قوله:(لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)(مريم:٤٤)، فالجملة الثانية "تعليلٌ لموجب النهي وتأكيدٌ له ببيان أنه مستعصٍ على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم، ولا ريب أن المطيعَ للعاصي عاصٍ، وكلُّ مَن هو عاصٍ حقيقٌ بأن يسترد منه النعم وينتقم منه "[١]، والتعليل من أدوات الاحتجاج، "فَإِنَّ النُّفُوسَ أَبْعَثُ عَلَى قَبُولِ الْأَحْكَامِ الْمُعَلَّلَةِ مِنْ غَيْرِهَا"[٢]، فإذا انضم إلى التعليل تأكيد كان أوغل في القبول.

ومثله (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)، فالجملة الثانية "تَعْلِيلٌ لِمَا يَتَضَمَّنُهُ الْوَعْدُ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنْ رَجَاءِ الْمَغْفِرَةِ اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ يُوَفِّقَ اللَّهُ أَبَا إِبْرَاهِيمَ لِلتَّوْحِيدِ وَنَبْذِ الْإِشْرَاكِ"[٣] مع دلالة التأكيد على شدة رغبته في تحقق الوعد، وقوة الربط وحسن الالتئام بين الجملتين.

وفي ترتيب الجمل المتعاطفة يراعى تقديم الأهم، والتأمل في هذا الترتيب يكشف وجه الاهتمام تبعا لمقصود المتكلم، ومن ذلك تقديم أبيه العقوبة الآجلة على العاجلة حيث "هَدَّدَهُ بِعُقُوبَةٍ آجِلَةٍ إِنْ لَمْ يُقْلِعْ عَنْ كُفْرِهِ بِآلِهَتِهِمْ (لأرجمنك)، وَبِعُقُوبَةٍ عَاجِلَةٍ وَهِيَ طَرْدُهُ مِنْ مُعَاشَرَتِهِ وَقَطْعُ مُكَالَمَتِهِ(وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)"[٤]، وفي هذا اعتناء بالعقوبة المقدمة، لأنها أكثر رادعا بزعم المتكلم فهي العقوبة الأغلظ، وكذلك في رد

---

(١) تفسير أبي السعود، ٥/ ٢٦٧، وينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ٣/ ٢٥٥ .

(٣) التحرير والتنوير، ١٦/ ١٢١.

(٤) السابق، ١٦/ ١٢٠.

إبراهيم قدم الآجل (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) على العاجل (وأعتزلكم) أي الْآنَ، لاهتمامه بهداية أبيه وكونه بها أعنى، فهي غرضه الأسمى في الحوار.

وعند إنعام النظر في ترتيب جمل الحوار لا تجد أجمع من عبارة الزمخشري: "انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم... كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن"(١).

ويشرح الطيبي عبارة الزمخشري "رتب الكلام معه في أحسن اتساق"، فيقول: "الواجب على الداعي الناصح والطبيب الحاذق بيان الضلال، وتشخيص الداء العضال، ثم الشروع في الدواء بإزالة المرض ورد الصحة، فبين عليه السلام أولاً خطأه في ارتكاب الشنيع من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئا، فإذا تنبه المنصوح والمريض على الضلال والمرض، لا بد أن يطلب من المنبه طريق الإزالة، فعليه أن يوقفه على الطبيب والمرشد، وإليه الإشارة بقوله: (فاتبعني...) فإذا أذن له عند ذلك يشرع في إزالة ما ينبغي إزالته، فيبتدئ بالأهم والأولى، فلما لم ينجح في أبيه هذا الوعظ حيث أجاب جوابه الأحمق بقوله: (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي)(مريم:٤٦)، لا جرم أنه عليه السلام لما لم يتمكن من التخلية بإزالة الشرك الذي هو المرض، فأسرع في التحلية من الأمر بالتوحيد الذي هو رد الصحة التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وبمكارم الأخلاق، فطلب الاعتزال"(٢).

وترى في بناء جمل الحوار ترتيبا وتسلسلا دقيقا على نحو اقتضاه تناسب المعاني: فإذا نظرت في مطلع الحوار رأيت براعة الاستهلال وحسن الافتتاح، حيث بدأ إبراهيم- عليه السلام- بالاستفهام عن علة العبادة:(لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا

---

(١) الكشاف، ٣/ ١٨، ١٩.

(٢) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ٣١/١٠.

يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)(مريم:٤٢) مراعيا في الترتيب تقديم الحجج الحسية على العقلية حيث "ابْتَدَأَ بِالْحُجَّةِ الرَّاجِعَةِ إِلَى الْحِسِّ: (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ)، فَتلكَ حُجَّةٌ مَحْسُوسَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقَوْلِهِ:(وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئا)"[١]. فبدأ باستفهام هو كالتنبيه الذي يوقظ الغافل ليعمل عقله فيما يعتقد ليحمل المحاور المخالف على التفكير، وإعادة النظر في الأمر للوصول إلى الحق بنفسه مع ما حمله تذييل الآية من البرهان العقلي المقرر للحقائق، ولهذا لم يعمد إلى أسلوب الأمر المباشر، أو النهي المباشر كأن يقول: لا تعبد ما لا يسمع... والغرض في هذه الآية الأولى أن يصل بالمخاطب إلى مقام الحيرة، فيعقبه في الآية التي تليها أنه أهل للهداية ليكون هذا ترغيبا وتحفيزا لاتباعه العلم والهدى لينجو، ولهذا قدم الوصفَ المقتضي لوجوب الاقتداء به على الأمر بالاتباع، فقال: (جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)(مريم:٤٣)، ورتب الأمر عليه بالفاء الدالة على التفريع (فَاتَّبِعْنِي)، وهذا ترتيب حسن في إقامة الحجة على الخصم، حيث "دَفع مَا يُخَالِجُ عَقْلَ أَبِيهِ مِنَ النُّفُورِ عَنْ تَلَقِّي الْإِرْشَادِ مِنِ ابْنِهِ... ففرَّع أَمْره بِأَنْ يَتَّبِعَهُ عَلَى الْإِخْبَارِ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ؛ لأَنَّ أَحَقِّيَّةَ الْعَالِمِ بِأَنْ يُتَّبَعَ مَرْكُوزَةٌ فِي غَرِيزَةِ الْعُقُولِ، لَمْ يَزَلِ الْبَشَرُ يَتَقَصَّوْنَ مَظَانَّ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ لِجَلْبِ مَا يَنْفَعُ وَاتِّقَاءِ مَا يَضُرُّ"[٢]. ولهذا الترتيب موقع مأنوس في النفس، إذ قدم (السبب) فتهيأت النفس لما يترتب عليه من حكم متفرع عنه، ولو عكس فقال: اتبعني فقد جاءني من العلم ... ربما حصل النفور من أول الأمر قبل سماع تتمة الكلام وعلته. ثم أعقب الأمر بنهيه عن عبادة الشيطان مردفا بالترهيب والتخويف من العذاب، قال الرازي: وَاعْلَمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَتَّبَ هَذَا الْكَلَامَ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ؛ لِأَنَّهُ نَبَّهَ أَوَّلًا عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، ثُمَّ

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٣، ١١٤ .

(٢) السابق، ١٦/ ١١٥.

أَمَرَهُ بِاتِّبَاعِهِ فِي النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَتَرْكِ التَّقْلِيدِ، ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى أَنَّ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ غَيْرُ جَائِزَةٍ فِي الْعُقُولِ، ثُمَّ خَتَمَ الْكَلَامَ بِالْوَعِيدِ الزَّاجِرِ عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى مَا لَا يَنْبَغِي، ثُمَّ إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْرَدَ هَذَا الْكَلَامَ الْحَسَنَ مَقْرُونًا بِاللُّطْفِ وَالرِّفْقِ"(١)، وأخر الأمر والنهي بعد الاستفهام؛ لئلا ينفر الخصم المعاند منذ بداية الحوار ويأنف من تلقي الأمر والنهي، وبهذا "سلك في دعوته أحسنَ منهاجٍ وأقوم سبيل، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدبٍ وخلقٍ جميل؛ لئلا يركبَ متنَ المكابرة والعناد، ولا يُنكّبَ بالكلية عن مَحَجّة الرشاد"(٢).

وبعد هذا التدرج المنطقي الذي هدم مذهب الخصم بالحجج القاطعة، مشفوعا بتلك الملاطفات، كابر الخصم وعاند، فحينئذ تصاعد الحوار ليبلغ منتهاه في الختام، وتصاعد البناء كالمرآة التي تعكس حركة المعنى وتصاعده تصاعدا منطقيا يقبله العقل، وتصاعدا جماليا ترتاح له النفس، وتأمل هذه اللبنات التي وليت السلام: (سأستغفر لك ربي)،(وأعتزلكم) ثم ارجع برباط بينها وبين السلام لترى تصاعد البناء ومعه تصاعد المعاني وتصاعد الأخلاق على نحو يحتذى، حيث ترقى في الخطاب من الحسن إلى الأحسن ومن الأدنى إلى الأعلى، فانتقل من العفو إلى الصفح الجميل حين ترقى من (سَلامٌ عَلَيْكَ) أي لا يصلك مني مكروه ولا أذى، فزاده خيرًا حين وعده:(سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي). ثم إنه قبل أن يصرح باعتزاله يُبعد عن أبيه المساءة التي ربما تقع في نفسه عند اعتزله، فيكون السلام احتراسا من هذا الظن، فكانت جملة (سلام عليك) مغلاقا لما قبلها مفتاحا لما بعدها، ولله در ابن عاشور حين ذكر أن إبراهيم بَادَرَ أباه بِالسلام قَبْلَ الْكَلَامِ الَّذِي أَعْقَبَهُ بِهِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا يَسُوءُهُ ذَلِكَ الْهَجْرُ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرْضَاتِهِ. وَمِنْ حِلْمِ إِبْرَاهِيمَ أَن كَانَت متاركته

---

(١) تفسير الرازي، ٢١/ ٥٤٥.

(٢) تفسير أبي السعود ، ٥/ ٢٦٧.

أَبَاهُ مشوية بِالْإِحْسَانِ فِي مُعَامَلَتِهِ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ (سلَام عليك)، وبعدها أَظْهَرَ حِرْصَهُ عَلَى هُدَاهُ (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)، وَعَلَّامَةُ الِاسْتِقْبَالِ وَالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ مُؤْذِنَانِ بِأَنَّهُ يُكَرِّرُ الِاسْتِغْفَارَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ[1]. وما أحسن قول الرازي:" لَمَّا وَدَّعَ أَبَاهُ بِقَوْلِهِ: (سَلامٌ عَلَيْكَ) ضَمَّ إِلَى ذَلِكَ مَا دَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ بَعُدَ عَنْهُ فَإِشْفَاقُهُ بَاقٍ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ وَهُوَ قَوْلُهُ: (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي)"[2]، فجاءت الجملتان بين يدي المقصود (وأعتزلكم) في نمط بديع يحقق التلطف والرفق والإحسان القولي والفعلي في ختام الحوار كما تحقق في مستهله، "فكان لطف الخطاب، وحسن الجواب، وأدب الكلام شعار الحوار في البدء والختام، وأثناء الكلام"[3]، وهذا التناسب بين المعاني كاشف عن نمط بناء الجمل في الحوار.

(١) ينظر:التحرير والتنوير، ١٦/ ١٢١.

(٢) تفسير الرازي، ٢١/ ٥٤٦.

(٣) الحِوار في قصص إبراهيم –عليه السلام– في القرآن الكريم دروس ودلالات، ص٨.

المبحث الرابع

الصورة الكلية في حوار إبراهيم-عليه السلام- مع أبيه

بعد هذه النظرات الجزئية في بلاغة الصوت والكلمة والجملة... لا بد من الوقوف على التناسق بين هذا كله على نحو يكشف الصورة الكلية التي تبرز ملامح الحوار وسمته العام، وإن شئت فقل عن هذه الصورة: " كأنما هي فصٌّ من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع"(١) . ويمكن أن ترى في هذه الصورة الكلية شدة التباين في الحوار بين أسلوب إبراهيم الابن النبي وأسلوب الأب الكافر، وهذا تكشفه الصورة التقابلية الكلية التي بني عليها الحوار، فتجسد الفرق بين أسلوب الرسل في الدعوة وأسلوب الكفار في المواجهة، وبينهما في الحوار مسافات شاسعة وفارق بعيد، تجلى ذلك فيما يلي :

١-**التقابل بين تلطف إبراهيم وشدة أبيه وغلظته**، فقد اعتمد إبراهيم على أساليب الاستدراج بالتعريض، والتلميح، ومجاراة الخصم، والكناية، والتورية، وتتآزر الألفاظ والجمل والأساليب في التلطف والاستدراج وإيثار المفردة والجملة التي تحقق استمالة المخاطب بل الأصوات بصفاتها تنبئ بلين إبراهيم في حواره كما تنبئ بشدة أبيه وغلظته وقسوته، ولاحظ إشفاق إبراهيم أن يمس أباه أدنى عذاب (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ)(مريم:٤٥)، والسلوك الإرهابي العدواني الذي يظهر في تهديد أبيه: (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) وما أشد الرجم عقوبة حسية ومعنوية ونفسية، "فقَدْ جَاءَ فِي جَوَابِهِ ابْنه بِمُنْتَهَى الْجَفَاءِ وَالْعُنْجُهِيَّةِ بِعَكْسِ مَا فِي كَلَامِ

---

(١) النبأ العظيم، ص١١٧.

إِبْرَاهِيمَ مِنَ اللِّينِ وَالرِّقَّةِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَاسِيَ الْقَلْبِ، بَعِيدَ الْفَهْمِ، شَدِيدَ التَّصَلُّبِ فِي الْكُفْرِ"[1].

٢-هذا الجفاء الذي لقيه إبراهيم لم يثنه عن جوابه بلطف، فالتهديد بالرجم والهجر من الأب قابله إبراهيم بطلب المغفرة من الله والرد المحفوف بالسلام والسلامة: " فقابل ما كان من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة العلم: (سلام عليك)"[2]. ولم يجرِ أسلوب إبراهيم مجرى أسلوب أبيه فيأمره أن يعتزله (اعتزلني) كما أمره أبوه أن يهجره (اهجرني)، وَإِنَّمَا أَمَرَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ ابْنَهُ بهجْرَانِهِ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِأَنَّهُ هُوَ يَهْجُرُهُ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْهِجْرَانَ فِي مَعْنَى الطَّرْدِ وَالْخَلْعِ إِشْعَارًا بِتَحْقِيرِهِ"[3]،ولكن إبراهيم أسند الاعتزال إلى نفسه(وأعتزلكم)، لتكون مفارقة بإحسان دون تحقير ولا طرد، ولم يوقع الاعتزال على أبيه منفردا بالخطاب الخاص (وأعتزلك)، كما خصه بالسلام والاستغفار من قبل، وإنما عدل إلى العموم (وأعتزلكم)؛ لأن الحوار من أوله جرى على (خطاب الواحد) حتى صدرت القطيعة من أبيه مؤذنا بانتهاء الحوار، فتحول إبراهيم من الخطاب الخاص إلى العام، وقد كان بقية القوم على رأي أبيه وأمرهم سواء، وهذا من روائع التقابل الحواري.

٣- التباين في موقع جملة النداء: فموقعها التقديم في صدر كلام إبراهيم (يا أبت)، ثم يعقب النداءَ استفهامٌ أو أمرٌ أو نهيٌ؛ توسلا إليه بعاطفة الأبوة واستمالة له، ليكون ذلك أسرع إلى الانقياد، وأدعى إلى مفارقة ما هو فيه من العناد، وأما موقعها في كلام أبيه ففي مؤخرة الجملة (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)(مريم:٤٦) بمجيئ جملة النداء في ذيل كلام أبيه إبعادا لابنه بحيث يكون

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦/ ١١٨.

(٢) نظم الدرر، ١٢/ ٢٠٧.

(٣) التحرير والتنوير، ١٦/ ١٢٠.

موقعه في اللفظ وفق موقعه في نفس أبيه، وهذا التأخير والإبعاد من عنف الأب وجفائه، ويضاف إلى هذا التباين أنه قابل قوله (يا أبت) بندائه باسمه (يا إبراهيم) لا بلفظ البنوة المذكر بالشفقة والعطف، " فأقبل عليه بفظاظة الكفر، وجلافة الجهل، وغلظ العناد... فانظر ما بين الخطابين من التفاوت فى الرقة والرحمة وحسن الاستدراج، فلله در الأنبياء! فما أسجح خلائقهم، وأرق شمائلهم، وفى القرآن سعة من هذا، ومملوء من حسن الحجاج والملاطفة"(١).

٤- **يعتمد إبراهيم في حواره على الحجة والإقناع كقوله:** (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)(مريم:٤٢) بخلاف أبيه الذي لجأ إلى لون من الحوار السلطوي: وهو الحوار الذي يستخدم فيه المحاور سلطته في تهديد الطرف الآخر.

وأخيراً تجد في هذه الصورة وحدة متكاملة تتنوع فيها الأساليب: فتجد الإطناب والإيجاز، والاستفهام والخبر، والأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والتصريح والتعريض، وخطاب العقل بالإقناع وخطاب العاطفة بالإمتاع، يسوق الحجج ممزوجة بالتشويق والتلطف أو مشوبة بالتنفير والترهيب... فهذا الحوار " قد تمثل فيه الأدب الكريم والحجة البالغة، فكان الأدب والبرهان يجريان في مجادلة إبراهم كفرسي رهان"(٢).

(١) ينظر: الطراز، ٢/ ١٥٠.

(٢) مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص١٧٥.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة التحليلية لبلاغة الكلمة، ونظم الجملة، وبناء الجمل، والصورة الكلية في حوار إبراهيم-عليه السلام- مع أبيه تجلى سمت الحوار وما فيه من بدائع الفوائد وروائع الفرائد، واتضح الأنموذج البديع الذي يحتذى في حوار يهتز سامعه، ويبلغ الإقناع به مبلغه، ويمكن إجمال أهم النتائج فيما يلي:

أولا- من مرتكزات الحوار الاعتماد على أساليب الاستدراج (بمعناه العام) ومنها: التعريض، والتلميح، والتورية...ليمتلك قوة التأثير في المخاطب، فالاستدراج ظاهر في أقوال إبراهيم-عليه السلام- تتنوع أشكاله وصوره ابتداء من الأصوات التي جاءت بصفاتها مسامتة للمعنى والموقف المليء باللين والتلطف من جانب إبراهيم-عليه السلام- كما تنبئ صفات الأصوات في قول أبيه عن شدته وغلظته وقسوته. ثم اصطفاء إبراهيم اللفظ الذي يأسر نفس المخاطب ويستميله، لأنه كان طامعا في هداية أبيه، فاصطفى كل مفردة من شأنها أن تحقق إقبالا، واجتنب كل ما ينشئ صدودا وإعراضا، وإن كان اختيار أبيه يسلك مسلكا آخر يخالفه ويضاده، تبعا لغرضه وحال نفسه، ثم مراعاة خصائص التراكيب في النظم من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وتأكيد وعدمه... وانتهاءً بترتيب الجمل ترتيبا حسنا في الاستدلال العقلي مع اتساقها أحسن اتساق لتكتمل الصورة التقابلية الكلية التي بني عليها الحوار.

ثانيا- اصطفاء المفردة التي تحقق غرض المحاور وتناسب الموقف النفسي للخصم، فكل مفردة من مفردات هذا الحوار إذا نظرت في إيثار مادتها وبنيتها وصياغتها وحسن موقعها من النظم تجد لها من الفوائد والدلالات ما يكسب الحوار مزيدا من التأثير في المخاطب، ويكشف عن إحساس المتكلم وعاطفته وانفعاله

وغرضه بحيث يختار اللفظ الذي هو أَخصُّ بدقيق المعنى، وأَكْشَف عنه، وأَحرى بأن يكسبه مزية.

ثالثًا- طُبع حوار إبراهيم -عليه السلام- بطابع سورة مريم، ولاءم ألفاظ السورة ومعانيها، وكذلك رخاوة فواصله الدالة على السلاسة واللطف في وقعها الصوتي.

رابعا- تنوع أساليب الحوار وامتزاجها في وحدة متكاملة، تجمع الإطناب والإيجاز، والاستفهام والخبر، والأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والتصريح والتعريض...على النحو الذي يقتضيه المقام وغرض المتكلم وحال المخاطب. فحسن الإطناب في الحوار حينما اقْتَضَى المَقَامُ اسْتِمالة المخاطب إِلَى قَبُولِ الْمَوْعِظَةِ كما في تكرار إبراهيم -عليه السلام- (يا أبت) أربع مرات، كما حسن إيجاز القصر والحذف في موضعه، وكلٌ أصيب به موضعه، وَهَذَا مِنْ طُرُق الْإِعْجَازِ.

خامساً- إحكام بناء الجملة في الحوار، والربط بين الجمل بـ (إنَّ) أو (الفاءِ) لتتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ، ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، ومع تصاعد البناء ترى حركة المعنى وتصاعده تصاعدا منطقيا يقبله العقل، وتصاعدا جماليا ترتاح له النفس.

سادساً- قوة الدليل والبرهان في أقوال إبراهيم -عليه السلام- على نحو يجمع بين خطاب العقل وخطاب العاطفة؛ ليتحقق الإقناع والإمتاع في مضمارٍ يجري فيه الأدب والبرهان كفرسي رهان، والله المستعان.

المراجع

١.. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢.. إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي(ت ٥٠٥هـ)، ط دار المعرفة– بيروت.

٣.. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود العمادي ت٩٨٢هـ)، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤.. أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٥.. الأقصى القريب في علم البيان: محمد بن عمرو التنوخي (ت٧٤٩هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة، الأولى١٩٨٦م.

٦.. البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ .

٧.. بدائع الفوائد: ابن القيم (ت٧٥١هـ)، ط دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٨.. بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم: د/زينب عبد اللطيف كامل كردي، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣١هـ.

٩.. تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، ط دار الهداية.

١٠.. تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري (ت ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط دار العلم للملايين، بيروت، ط الرابعة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١١ـ التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء العكبري(ت٦١٦هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، ط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة.

١٢ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ابن أبي الإصبع المصري(ت٦٥٤هـ)، تحقيق: د/حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

١٣ـ التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ) ط الدار التونسية للنشر، تونس١٩٨٤م.

١٤ـ الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: محمد نور الدين المنجد، ط دار الفكر، دمشق، الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٥ـ التعريض في القرآن الكريم: د/إبراهيم الخولي، ط دار البصائر، القاهرة، الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٦ـ تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٧ـ الجنى الداني في حروف المعاني: المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د/فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٨ـ حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ٢٠٠٧م.

١٩ـ حاشية القونوي(ت١١٩٥هـ) على تفسير البيضاوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ط الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٠ـ الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة: د/يحيى زمزمي، ط دار التربية والتراث، مكة المكرمة، ط الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢١ـ الحِوار في قصص إبراهيم -عليه السلام - في القرآن الكريم دروس ودلالات: د/محمد بن عبد الرحمن الشايع، بحث في مؤتمر الحوار في الفكر الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، الإمارات،١٤٢٨هـ .

٢٢ـ الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني(ت٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الرابعة.

٢٣ـ خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني: د/محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط السابعة.

٢٤ـ خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام: د/الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط الأولى ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

٢٥ـ دراسة أسلوبية في سورة مريم: معين رفيق أحمد صالح، رسالة ماجستير في جامعة النجاح الوطنية، فلسطين ٢٠٠٣م.

٢٦ـ دلائل الإعجاز: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني(ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط الثالثة١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٢٧ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) ، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى، ١٤١٥ هـ.

٢٨ـ شروح التلخيص وتشمل: (مختصر سعد الدين التفتازاني، ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح للسبكي)، وبهامشه: (الإيضاح للخطيب القزويني، وحاشية الدسوقي على شرح سعد الدين التفتازاني)، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٩ـ ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: عبد الرحمن حسن حبنكة، ط دار القلم، دمشق، الرابعة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
٣٠ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوى(ت: ٧٤٥هـ)، المكتبة العصرية، بيروت، ط الأولى١٤٢٣هـ.
٣١ـ علل الوقوف: السَّجَاوَنْدِيُ (ت٥٦٠هـ)، تحقيق د/ محمد العيدي، مكتبة الرشد، ناشرون، الرياض، السعودية، ط الثانية ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.
٣٢ـ عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي (حَاشِية الشِّهَابِ الخفاجي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي): شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) دار صادر، بيروت.
٣٣ـ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، ط جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات، الأولى١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
٣٤ـ في ظلال القرآن: سيد قطب، ط دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط السابعة عشرة ١٤١٢هـ.
٣٥ـ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي التهانوي(١١٥٨هـ)، تحقيق: د/علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط الأولى١٩٩٦م.
٣٦ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، ط دار الكتاب العربي، بيروت، الثالثة ١٤٠٧هـ.
٣٧ـ الكليات: أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، ط مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣٨ـ لسان العرب: ابن منظور (ت ٧١١هـ)، ط دار صادر - بيروت، الثالثة ١٤١٤هـ .

٣٩ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٠هـ.

٤٠ـ معاني النحو: د/ فاضل صالح السامرائي، ط شركة العاتك بالقاهرة، ط الثانية ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

٤١ـ مفاتيح الغيب (تفسير فخر الدين الرازي ت ٦٠٦هـ) ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٤٢ـ مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي(ت ٦٢٦هـ) تحقيق: د/عبد الحميد هنداوي، ط دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

٤٣ـ المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهانى(ت٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط دار القلم، دمشق ، الأولى١٤١٢هـ.

٤٤ـ مقاييس اللغة: أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط دار الفكر١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٤٥ـ منار الهدى في بيان الوقف والابتدا: أحمد بن عبد الكريم الأشموني (ت١١٠٠هـ) تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

٤٦ـ مناهج الجدل في القرآن الكريم : د/ زاهر الألمعي، مطابع الفرزدق بالرياض، ط الثالثة ١٤٠٤هـ.

٤٧ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني(٦٨٤هـ) ، ط دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان.

٤٨ـ النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن):د/محمد عبدالله دراز، ط دار القلم، الكويت.

٤٩ـ النشر في القراءات العشر: شمس الدين ابن الجزري(ت٨٣٣ هـ)، تحقيق : علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.

٥٠ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، ط دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.